مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد السابع السنة الرابعة محرم ١٤٤١هـ الموافق سبتمبر ٢٠١٩م

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- هدايات شرعية لأحكام الأطعمة في ظلال سورة المائدة
  دراسة تفسيرية موضوعية
  د. باحي زكوب عبد العالي
- الهدايات المستنبطة من آية
  "فبما رحمة من الله لنت لهم..." آل عمران ١٥٩
  أ/ محمد بن علي بن جميل المطري
- بلاغة التعبير باللسان في القرآن الكريم
  د. محمد حايم أبو سمعان
- حمد الرسل عليهم السلام لربهم عز وجل في سوء القرآن الكريم
  دراسة موضوعية
  أ/ حمزة عبد الله سعادي شواهنة
- تقرير عن رسالة علمية بعنوان كلمة لا إله إلا الله في القرآن الكريم
  دراسة موضوعية
  الباحث: موسى بن سالم المالكي
- تقرير عن برنامج تدارسوه بينهم
- تقرير عن المؤتمر العلمي السادس للدراسات القرآنية وتدبر القرآن الكريم
  في أوروبا "منهج القرآن في بناء الإنسان"

مجلة تدبر

البحث الثالث

بَلَاغَةُ ٱلتَّعْبِيرِ بـ "ٱللِّسَانِ" فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

د. مُحَمَّدْ حَاتِمْ أَبُوسَمَعَان

أستاذ البلاغة العربية المساعد، قسم اللُّغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى - غزة - فلسطين.

- حصل على درجة الماجستير من كلية الآداب- الجامعة الإسلامية بغزة فلسطين بأطروحته: التراكيب النَّحْوية من الوجهة البلاغية في القرآن الكريم.
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب- جامعة عين شمس بمصر بأطروحته: النَّظم في سورة الإسراء دراسة أسلوبية بلاغية.

أهم النتاج العلمي:

- القطاف الداني في علم المعاني.
- الجامع في علوم البلاغة.
- الكافي في علوم اللغة العربية.
- مهارات الكتابة والإملاء.
- إثبات المكية بالدراسة الأسلوبية في سورة الإسراء
- بلاغة التركيب لآيات ظلم النفس في القرآن الكريم
- التوجيه البلاغي للقراءات في سورة الصافات

البريد الإلكتروني: msmaan2010@hotmail.com

مجلة تدبر

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث دراسةَ بلاغة التعبير بجارحة «اللسان» في آيات القرآن الكريم حول المعاني التي طُرِقت فيها؛ حيثُ قام بتتبع جميع المواضع التي ورد فيها؛ محاولًا الكشف عن الدَّلالات الدَّقيقة، والمعاني العميقة التي وُظِّف للتَّعبير عنها، ومدى إثرائه لتلك المعاني والإضافات البليغة إليها، من خلال التحليل العميق للصِّيغ القرآنية التي ورد فيها. وقد تكشَّف بالاستقراء والتحليل أنَّ اللسان قد جاء في القرآن الكريم مُضَمَّنًا في صيغٍ تركيبية فريدة ضمن سياقات معنوية عامَّة مهمة، هي: العُقدة والانطلاق، والصِّدق، والكذب، والشهادة، واللُّغة، والسوء بشكل عام.

كلمات مفتاحية : بلاغة – التعبير – اللسان – القرآن.

خطة البحث

أولا: مقدمة:

الحمد لله على ما أنعم، وعلى كلِّ ما تفضَّل به سبحانه وأسبَغَ وأكرم، وصلاةً وسلامًا على نبيِّه البليغِ الأكرم، ومصطفاه النَّجيب الأعصم، وعلى آله وصحبه أُولي الأيدي والعِلم المُحكَم.

وبَعدُ:

فلا يزال القرآن العظيم يشُدُّ الباحثين بلطيف مفرداته، وبليغ صيغِه وآياته، نحوَ الدرس والتنقيب؛ لاستدرار جواهر المعاني والدَّلالات، واستخلاص أبلغ الحِكم والاعتبارات، وهو -لعمر الله- لا يخْلَق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه ولا أسرارُه بكثرة دراساتِه، من هنا كانت هذه الدراسة حول التعبير بمفردة «اللسان» في القرآن الكريم واستعمالاتها المعنوية فيه، وما يُضيفه لها من فائق المعاني وطريفِ الدَّلالات.

ثانيًا: موضوع البحث:

يتناول هذا البحث دراسة بلاغة مفردة من مفردات القرآن الكريم هي مفردة «اللسان»، وبلاغة مواقعها من النظم الشريف، وبلاغة دلالاتها في تلك المواقع جميعها. وجاء تحت عنوان: «بلاغة التعبير باللسان في القرآن الكريم».

ثالثًا: أسباب اختيار الموضوع:

جاء هذا البحث في هذا الموضوع؛ لجملة من الأسباب، منها:

- الوقوف على الأسرار الدَّلالية لمفردة اللسان في القرآن الكريم.
- بيان بلاغة التَّراكيب التي وردت فيها هذه المفردة، وما أضفته عليها من معانٍ.

- تجلية وجوه تميُّز التعبير باللسان في القرآن الكريم عن غيره من الجوارح.
- إظهار جزء من وجوه الإعجاز البياني لبلاغة القرآن الكريم من خلال نظم إحدى مفرداته.

۞ رابعًا: منهج البحث:

استدعى هذا البحث -من الباحث- أن يسلك فيه المنهج الوصفي التحليلي لمعاني اللسان ودَلالاته البلاغية الناشئة من تراكيبه المُحْكمة، وصياغة مفرداته في تلك التراكيب صياغة بارعة، بعد الاستقراء الدقيق لجميع مواضعه في القرآن الكريم.

۞ خامسًا: دراسات سابقة:

- لغة العين في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، للدكتور: كمال عبد العزيز إبراهيم.
- بلاغة التعبير بالوجه في القرآن الكريم، للدكتور: كمال عبد العزيز إبراهيم.

۞ سادسًا: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث ومادَّته وغرضه أن يُقسم إلى مقدمة وتمهيد وستة مباحث، كالآتي:

المقدمة: وتضمنت موضوع البحث، وأسباب اختياره، ومنهجه، وخطَّتَه، وبعض الدراسات السابقة في المجال ذاته.

التمهيد: جاء حول فوائد اللسان الجمَّة، وأخطاره الجسيمة بشكل عام، ثمَّ تحدث حول ورود مفردة اللسان في القرآن الكريم وتَعْدادها فيه.

المبحث الأول: عُقْدة اللسان وانطلاقه.

المبحث الثاني: اللسان والشهادة.

المبحث الثالث: اللسان ووصفه بالصدق.

المبحث الرابع: اللسان ووصفه بالكذب.

المبحث الخامس: اللسان لغة للقوم.

المبحث السادس: اللسان مع سياق السوء عمومًا.

الخاتمة:

ثـمَّ انتهـى البحث إلـى نتائجه التفصيليـة في الخاتمـة، كما ذُيِّـلَ بقائمة مصادره ومراجعه. والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد

◈ أولًا: أهمية اللسان في التراث العربي:

يُعدُّ اللسان من أهمِّ أعضاء النُّطق في الإنسان؛ فهو الواصف لحاله وهيئته، والمُبيِّنُ عن سرِّه وجَوهره، والمُفصح عن معدنِه ومنبتِه، ولا يخفى على ذي لُبٍّ أهمية اللِّسان في شتى مجالات الحياة الإنسانية؛ فَحُسْنُه عظيم، وخطره جسيم، والممدوح به مرفوع، والمذموم به مخفوض، ولا أدلّ على عِظمِ حسنِه من قول سيدنا عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلَّمَ ظهر»[1]؛ فهو وسيلة إظهار مَخْبَرِ المرء الذي بدونه يكون في عِدادِ الخَفَاءِ المستور، بل إنَّه -لِعظيم أهميته- كان من أجزاء الجسد المذكورة التي لا يُمكن أن تُغْفل في أمر من الأمور حتى عُدَّ شطر الإنسان -لو قسم لشطرين- يقول زهير:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلا صورة اللَّحم والدَّم[2]

بل إنَّه -لعَمْري- خيرُ الشَّطرين، وأعظمُ النِّصفين؛ إذ إنَّ الجَنَانَ -بكلِّ ما أوتيَ من ذكاء وعقل، وبجميع ما وُهِبَ من حصافة وفِكر- لا يُظهِر ولا يُبين إلا بلسان لافظٍ فصيح لا يَعجَل ولا يَلحَن، ومن هنا قيل: «لسان المرءِ من خَدَمِ الفؤادِ»[3]، جاعلين اللسانَ الخادمَ الأول للفؤاد من بين سائر الأجزاء، والجندي الأوحد في الإفصاح عمَّا يختجله ويعتمل فيه.

---

(١) هذه الحكمة للإمام عليّ، وهي في مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٢٢/ ٤٢)، و تفسير الثعالبي (١/ ٥٣٣).

(٢) ديوان زهير بن أبي سُلمى (ص٧١).

(٣) مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٢٥٧).

كذلك فإنَّ العرب -على عُلوِّ كَعبها في دقَّة التسمية- لم تختر اسمًا لشاعرها المُبْرَز أو خطيبها المِصقع المنافحِ عنها أمام القبائل، وإذاعتها الناطِقة باسمها بين العرب غير مسمى «اللسان»، لسان القبيلة وشاعرها، حتى قيل: إنَّ جريرًا المُضريَّ لسانُ مضرَ وشاعرها، ثم إنَّ تلك اللسانيَّة لشاعر مُضر قد شفعت له من سطوة الحجاج وبأسِه لَمَّا أن أراد أن يَبْطِشَ به، فمشت إليه مُضَرُ مُستشفِعةً بشاعريَّته فقالوا: أصلح الله الأمير! لسانُ مضر وشاعرُها، هَبْه لنا، فوهَبه لهم[1].

كما كانت تلك اللسانِيَّة شافعةً للقوم بأسْرِهم حينَ مَثَّلهم غلامٌ لم يبلغ الحُلم أمام عُمر بن عبد العزيز عند دخولهم عليه يشكون حالهم؛ فكانَ أن سمعَ منهم وأجزل عطاءهم وأكرمَ نُزُلَهم وأدنى مجلسهم[2].

كذلك أطلقوا على أشعارهم المجيدة وقصائدهم الخالدة الاسمَ ذاته، فقالوا: «الشِّعر لسان الدَّهر»، فإذا كان الشِّعر ديوان العرب؛ فإنَّه لسانهم الذي خَلَّد ذِكرَهم ومآثرهم وأخبارهم وأمثالهم مُمْتدًّا على سمع الزمان وبصرِه، فقد رُوِيَ عن بعض حكماء العرب: «الشِّعر قَيْدُ الأخبار، وبَرِيدُ الأمثال، والشعراء أمراء الكلام، وزُعَمَاء الفَخَار، ولكلِّ شيء لسان، ولسانُ الدَّهر هو الشِّعر»[3].

أمَّا عن جسيم خَطرِه وعظيمِ بأسِه، فَيُطالعنا به سيدُ المتكلِّمين وأفصح الناطقين ﷺ عندما سُئِل عن أكثر ما يُدخل الناس النار، فقال: «**الفم والفرج**»[4]،

(١) انظر المرجع السابق (١/ ١٤١).

(٢) انظر محاضرات الأدباء، الأصفهاني (١/ ٦٢٥).

(٣) الأمثال، الميداني (١/ ٣٥٤).

(٤) سنن الترمذي، باب ما جاء في حسن الخلق (٤/ ٣٦٣)، حديث رقم ٢٠٠٤.

وقوله ﷺ: «**ليس شيء من الجسد، إلَّا وهو يشكو ذَرَبَ اللسان**»[١]، أي: حِدَّته. وهي حِدَّة جسيمةٌ طائلةٌ تُورِد سائر الأعضاء المَوارِدَ الوخيمة والعَواقِبَ المُهْلِكة؛ فلا غَرابةَ من استعاذتِها من حِدَّتِه، ولا غَرْوَ بعدها أيضًا من حذَرِ السادة الصالحين -كأبي بكرٍ الصدِّيق- وخوفِهم من مهالكه بقوله رضي الله عنه: «إنَّ ذا أوردني الموارد»[٢].

بل لقد وُصِف بأخطر الأوصاف؛ كالسَّيف، والحاصد، وسافِك الدم، ودهاء الحية، والحديد، وأغلبها كما نرى مُرادفات للسيفِ أو لأعماله من حصد الرؤوس وإزهاق الأنفس وسفك الدِّماء، وذلك ما أجمله أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: «لسان المرء سيفٌ يخطرُ في جوانحه»[٣]. وكتشبيههم وَقْعَه بحدِّ الرمح والسِّنَان؛ كقول شاعر البراجم:

وَوَقعِ لسانٍ كحدِّ السِّنان ورمحًا طويلِ القَناةِ عسولا[٤]

وتستمِرُّ صولُته الحديديّة لدرجة أنهم طلبوا الجوار من بأس سيفِه وشِدَّةِ شكيمَتِه. فهذا الحارث بن عوف بن أبي حارثة يستجير بالنبيِّ ﷺ من لسان حسان بن ثابت رضي الله عنه، بعد أن عَكَّر عليه صفْوَ عيشِه، ومَزَجها بِمِزاجِ الهجاءِ والشَّينِ؛ إذ لو مُزج بلسانه البحر لامتزج[٥]، ولسان شاعر رسول الله أشهر من أن يُذْكر في صرم نار الهجاء القُرشية للنبيِّ وللدعوة الإسلامية بأسرها.

من هنا رأينا أنَّ الجِلَّةَ السابقة من العلماء والأمراء والحُكماء قد حضوا على المبالغة في حفظه والحث على التحذير من الإفراط فيه.

(١) مسند أبي يعلى، مسند أبي بكر الصديق، (١/ ١٧)، حديث رقم ٥.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي (٥/ ١٩٧).

(٣) البصائر والذخائر، أبو حيان (٩/ ١٨٧).

(٤) وهو: عبد القيس بن خِفاف البُرجمي، شرح ديوان الحماسة، التبريزي (١/ ٣١١).

(٥) انظر: المرجع السابق (٤/ ٣٦).

◈ ثانيًا: اللسان في القرآن الكريم:

أمَّا التعبير باللسان في القرآن الكريم فجاء مُوَشًّى بأبهى الحُلل، ومُرصَّعًا بأفخر جواهر النَّظم؛ ذلك لأنه جاءَ مُضَمّنًا في أعلى كعوب الأساليب البلاغية فصاحةً وسبْكًا، وأبلغها إحكامًا ونظمًا؛ فاكتسى دَلالات لطيفات، ولطائف فريدات، وفي ذلك حِكَمٌ من ربِّنا بالغات.

وبعد الاستقراء الدَّقيق لهذه المفردة وطُرُق التعبير بها عن المعاني التي وردت فيها في السياق القرآني بأجمَعِه تبيَّن أنها قد وردت فيه خمسًا وعشرين مرةً في ثمانيَ عشرَ سورةٍ منه(١)، وقد توزَّعت هذه المفردة بين الإفراد والجمع؛ فجاءت مفردةً من غير إضافة «لسان» عشرة مرات (١٠) اثنتين منها في سورة النحل، بينما وردت مفردةً مضافة إلى ضمير الخِطاب «لسانَكَ» ثلاث مرات (٣)، ومضافة إلى ياء المتكلم «لساني» مرتين فقط (٢)، بينما وردت مجموعةً عشر مراتٍ أُخرَ (١٠)، مرةً دون إضافة «ألسنة»، وثلاثًا أضيفت فيها إلى المخاطب «ألسنتكم»، وستًّا أضيفت فيها لضمير الغيبة «ألسنتهم».

وأما السياقات المعنوية القرآنية التي جاءت فيها مفردة «اللسان» فكانت على ضربين:

◆ **أولهما:** سياقات معنوية عامَّة، وهي ست سياقات؛ كالعقدة والانطلاق، والصدق، والكذب، واللغة، والشهادة، والسوء عمومًا.

◆ **ثانيهما:** سياقاتٌ معنوية خاصَّةٌ بكلِّ موضع تعبيريّ على حدة، وقد وجدنا من خلال هذه السياقات الدَّقيقة أنَّ دخول لفظ «اللسان» في المعنى يصل به إلى درجة سامقة من الفصاحة الدَّلالية التامَّة، وإلى قمة شمَّاء من البلاغة

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي (ص٧٤٦).

المعنوية العالية؛ فرأيناه يُدْخِلُ المعنى في السرعة الخاطفة عند الغمز واللَّمز، ويَدْخلُهُ في مجال الصدقِ فيَجعلَ الكتب السماوية مُصدِّقة لبعضها مُنْتَظِمةً في بناءٍ يَشدُّ بعضُهُ بعضًا، ويَدْخُلُه في النُّطق والكلام فُيُجْرِيه عذبًا سلسبيلًا، أو يَعْقِدُ عليه عُقدَهُ فَيُحيله أعجم لا يَكادُ يُبِين، ويَدْخلُ موطنَ الشهادة على الخُصوم فَيُثبتها عليهم إثباتًا لا يجدون منه مهْربًا ولا مَحيصًا، إلى غير ذلك مما خَلُص إليه البحث من لطائِف وأسرار، وشَمِلهُ بالتَّحليل والتَّعليل والاعتبار.

المبحث الأول

عُقدة اللسان وانطلاقه

لَمَّا كان الجمالُ فصاحةَ اللسان، كانت من أبرز وظائف اللسان الإفصاح والإبانة، وإظهار الهيبة بجلال العبارة، وكساءُ المعنى ثوبَ البلاغة والنضارة فإذا هو مُشرِقٌ بهيج. لأجل ذلك كان اشتراط كمال اللسان وخلوّه من العيوب هو الشَّرط الأبرز عند نقَّاد الكلام وحُذَّاق الشِّعر؛ لفصاحة اللِّسان وبلاغة صاحبه، ثمَّ أطلقوا بعد ذلك صفات لهذا الشَّرط؛ فقالوا: «فإذا كان لا تعترض لسانه عقدة ولا يتحيَّفُ بيانُه عُجمة فهو: مِصْقَع»[(١)]، فإذا خلا منه تأهَّل بعده لأن يكون «مِدْرَة»، أي: لسان القوم[(٢)]، قال قيس بن عاصم المِنقريّ مفتخرًا:

خُطبَاءُ حينَ يقومُ قائِمُنا بِيضُ الوُجوهِ مصاقِعٌ لُسُنُ[(٣)]

وعلى النَّقيض من ذلك إنِ اعتوَر اللسانَ عقدةٌ أو حُبسةٌ من تَأْتأة أو فَأْفأة أو أيِّ عيب خَلْقيٍّ كان عندهم مظنة القصور عن الإفصاح، وآية الخطر والخطَلَ، وإشارة قلَّة النَّباهة؛ كقولهم: «فإنَّ الكلام صلف تيَّاه لا يستجيب لكلِّ إنسان، ولا يصحب كلَّ لسان، وخطره كثير»[(٤)]. هذا بالإضافة إلى الموقف وما يُمْلِيهِ على اللسان وصاحبه من انحباس أو انطلاق، فموقف الجلال والهيبة والرَّهبة من شأنه أن يُعْقد على اللسان عُقَده فلا يبين إبانةً كاملة، أو ربما عجز عن الإجابة المعلومة المحفوظة، وموقف الرَّغبة أو الراحة من شأنه أن يُطلِق اللسان بالثناء العاطر أو الوصف الدقيق المُبْلغ للغاية والمحقق للمطلب

(١) لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٢٠٣)، والصحاح، الجوهري (٣/ ١٢٤٤).

(٢) انظر: فقه اللغة، الثعالبي (١/ ١٧٣).

(٣) شرح ديوان الحماسة، الأصفهاني (ص١١٠٩).

(٤) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان (ص٣٧).

والحاجة. وهذا عينُه ما يُلحَظ على مفردات اللسان اللاتي جاءت في القرآن الكريم في سياق انعقاد اللسان وانطلاقه.

فقد وردت في هذا الاتجاه ثلاث مرات في النظم القرآني الشريف، واللافت أنها كلها جاءت في سياق الحديث عن سيدنا موسى ﷺ، وملابسات مبعثه إلى فرعون هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وهي على الترتيب:

- قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧].
- وقوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

نلحظ أن العُقدة قد تردد ذكرها بين التصريح والتكنية، ففي أوَّل موضع من النظم الشريف ذكَرَ العقدة الكائنة في لسان سيدنا موسى ﷺ صراحةً في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾، بينما كنَّى عنها كناية قريبة من التصريح في موضع الشعراء: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، أما في موضع القصص بعد أن ظهرت بالتصريح والكناية القريبة منه، كنَّى عنها تكنيةً مُبْهمة ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾[1].

وبعد الاستقراء الدَّقيق والتمحيص العميق؛ ظهر أن ذلك الموقف موقفُ خوفٍ عظيمٍ وهولٍ كبير، هو خطر مواجهة فرعون وجبروته وتسلّطه وبغيه، حتى خالطَ ذلك الخوفُ والفَرَق نياطَ عروق مَنْ حولَه من الملأ، وأُشْربَتْه قلوبَهم فتَغَلغلَ في أجزائها «ولمَّا كان فرعون عظيمَ النَّخوة حتى ادَّعى

(١) انظر: أسرار التَّكرار في القرآن، الكرماني (ص١٧٥).

الألوهية، كثير المهابة، حتى أُشربت القلوب الخوف منه خصوصًا مَن كان من بني إسرائيل»[1].

كلُّ هذا في خوف بني إسرائيل من فرعون، فماذا عن خوف سيدنا موسى عليه السلام؟ لا شكَّ أنه سيكون خوفًا مُضاعفًا؛ وفوقَ هيبة جبروت فرعون وبأس سطوته، وتنكيله بخصومة عذابًا يَعَفُّ اللسان عن ذكره استحياء وقتلًا وتدميرًا وتخريبًا، فبعد أن نشأ وترعرع في بيت الطاغية قَتَل سيدنا موسى -من قبل- أحد رجاله وهرب إثر ائتمارهم عليه بالقتل، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، ثمَّ إنه ﷺ كان يُعاني من حُبسةٍ لسانِه وعَجلةٍ في نطقهِ لِما تواتَر من خبر التقاطه للجمرة في صِغَره، فقد روى غير واحدٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كانت في لسانه رتَّةٌ، وذلك أنَّه كان في حِجْر فرعون ذات يوم فلطمَه لطمةً وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسيةَ امرأتِه: إنَّ هذا عدوُّي، فقالت آسية: على رَسلك! إنَّه صغير لا يعقل، ثمَّ جاءت بطستين فجعلت في أحدهما الجمر، وفي الأخرى الجوهر ووضعتهما بين يدي موسى، فرفع جمرة ووضعها على لسانه فأصابته رتَّةٌ من يومه ذلك[2].

فوق هذا يأتيهم برسالة تنسف ديانتهم عن آخرها، وتذكِّر طاغيتهم بالبارئ الأعلى والإله العظيم، فينزَع البساط من تحت قدميه دفعةً واحدة من غير إنذار سابقٍ أو تمهيد، بعد أن تجبَّر في الأرض وبغى وطغى فيها إفسادًا وهتكًا وإهلاكًا وبغيًا وطغيانًا لم يُعلم لأحد من قبله أو من بعده بإسرافهِ شططًا حين ادَّعى الألوهية من دون الله ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

(١) البحر المحيط، أبو حيان (٧/ ٨).

(٢) انظر: تفسير مجاهد، (ص٤٦٢)، و تفسير الثعالبي (٦/ ٢٤)، ومعالم التنزيل، البغوي (٣/ ٢٦٠).

ولنتصور بعد ذلك إنسانًا يقف أمام ذلك الجبار الغشوم. قطعًا إن رباطة الجأش ستجانِبُه، وقوَّة القلب ستُفارقه، وسَعة صدرِه ستستحيل ضيِّقة حرجة؛ فلا يُترجم اللِّسان حُجَّته واضحة فصيحة، ولا يبينُ عن جميعِ ما يختَلجُ لُبَّهُ، ولا تُسْعِفه بعدَ ذلك ذاكرتُه في استدرار الأدلَّة على صِدْق دعواه أمام مدافعي فرعون ومُنافحيه فيرمونه بالكذب؛ لذلك كله اجتمع على سيدنا موسى أسبابٌ للخوف كثيرةٌ: خوفُ التكذيب، وخوف ضيق الصَّدر، وخوف لجلجة اللسان وحُبْستِه[1] لدرجة الانعقاد التي لا انفكاك له معها ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، «فعَلِمَ أنه كُلِّف أمرًا عظيمًا، وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط، وصدر فسيح»[2]؛ ليستقبل ما قد يرد عليه من الشَّدائد وجلائل الخطوب التي يذهب معها صبرُ الصابر وحلمُ الحليم.

لذا رأينا السَّيدَ الكليمَ يستحضِرُ كلَّ هذه المخاوِف والمشاعر الرَّهيبة؛ فيطلب من ربِّه التخفيف بأدوات تُسَكِّنُ بعض رُوعِه، وتعينه على أداء ما كُلِّفَ به، مستعينًا بالتوكُّل عليه، مُدَّرعًا بوسائله وأسبابه، فطلب أولًا انشراح الصَّدر وانبساطه في قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه:٢٥]؛ لأن الانقباض يُهْدِر طاقة الإنسان[3]. ثمَّ طلب شدَّ الأزر والعون من الله بالإشراك في الأمر معه ناصحًا أمينًا مخلِصًا كأخيه النَّاصح هارون عليه السلام في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:١٣]، وقوله: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص:٣٤]، ثمَّ إنَّ انشراح الصدر والوزارة لا يكفيان؛ فطلب تيسير الأمر عمومًا في قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٦]، وأخيرًا

(١) البحر المحيط، أبو حيان (٧/ ٨).
(٢) الكشاف، الزمخشري (٣/ ٦٠).
(٣) انظر: خواطر حول القرآن، الشعراوي (١٥/ ٩٢٥٨).

طلب انطلاق اللسان من رتَّةِ الجمرِ[1] حال تقدُّمه لقيادة بني إسرائيل بمَن فيهم فرعون في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:٢٧]؛ إذ لا ينبغي للأرتِّ أن يُقَدَّم[2]. فطلب حيالها إجراء لسانِهِ بالحجَّة والبرهان في تبليغ البيان أمام ظالم عنيدٍ يقف عند سطوتِهِ الجَنَان، وينعقِدُ أمام بَطْشِهِ اللِّسان.

نخلص بعدَ ذلك إلى الدَّواء الشافي، والعلاج الناجع، والوسائل البليغة التي أمدَّها الربُّ الجليل لكليمه ومصطفاه؛ إذ لم يتركه نَهبًا لتلك المنازع العنيدة، والمخاوف الرَّهيبة والتي عبَّدَ بها ملأُ فرعون بني إسرائيل؛ فأبدلَهُ مولاه بالخوف من فتْكِ فرعون وملئه أمنًا وأمانًا في قوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]، وقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]. كما أبدله بخوف التكذيب الوارد في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، تصديقًا وتعضيدًا ومعيَّةً إلهية شديدةً تغلبُ بسلطانِها الإلهيِّ المبين زَهوَ فرعون وكبرياءه في قوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القصص: ٣٥]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]، ثم أحال عُقدةَ لسانه فصاحة وانطلاقًا بالقول عذبًا سلسبيلًا في قوله: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وبيانًا بليغًا غالبًا لا يُغالب في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

أما بالنسبة لذكر تلك العُقدة تارة بالكناية وبالتصريح تارة أخرى، فيتبيَّن من خلال السِّياق السابق واللاحق لموضع تلك العُقدة من السِّياق القرآني. ففي موضعي الشعراء والقصص تلا فعلَ التكليفِ الإلهي لسيدنا موسى **عليه الصلاة والسلام** -بإتيان فرعون وقومه- خوفُ التكذيبِ في قوله:

(١) **الرُّتَّة**: عَجَلة فِي الكلام، وقلة أناة، وقيل: هي العجمة في الكلام أو عجلَة وتقطيع لا يبينُ به الكلام، وقيل: إنها تكثر في الأشراف. لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٣٤)، وفقه اللغة، الثعالبي (١/ ١٧٤).

(٢) روي أن النَّبي رأى رجلاً أرتَّ يؤمُّ الناس، فأخَّره. لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٣٤).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء: ١٢]، أو خوف القتل والتَّكذيب معًا في قوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، و﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]. ومعلومٌ أن التَّكذيب والاتِّهام بالقتل من أشدِّ عوامل لجلجةِ الفؤاد وضيقِ الصدرِ وانعقادِ اللسان وحُبْسَتِهِ؛ فجاء بذكر العُقدة اللِّسانية كنايةً لا تصريحًا لما سبق من ذكر أهمِّ أسبابها الباعثة عليها، فكان في ذكرها على سبيل التكنية كفايةً وبلاغًا؛ لما سبقها من تمهيدٍ دالٍّ عليها. ولو ذكرها صراحةً في هذين الموضعين لكان قد ذكر عقدة اللسان صراحة -أو كالصراحة- مرتين متتاليتين، وربما أدَّى ذلك إلى الإخلال بفصاحة التَّركيب.

ثمَّ إنَّ الخوف من تكذيبه ﷺ في موضع الشعراء كان قريبًا جدًّا من أمر تكليفه بالرسالة ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء: ١٠-١٢]. لذا كنَّى عن تلك العُقدة اللسانية كنايةً قريبة هي كناية الإيماء؛ إذ الوسائط قليلة بين المكنَّى عنه والمكنَّى به؛ حيث انتقل من خوف التَّكذيب إلى ضِيق الصَّدر إلى حُبْسةِ اللسان مباشرةً.

أمَّا في موضع القصص فقد تقدَّم خوف القتل وفَقْد الحياة على الخوف من التَّكذيب الذي جاء بعيدًا عن أمر التكليف؛ فجاء بكناية التَّلويح البعيدة؛ حيث انتقل بوسائطها من العيش الآمن في مُلك فرعون إلى قَتْل أحد حاشيته إلى الخوفِ على نفسه من القَتْل، ثمَّ إلى ما يَعْتَورُ القلبَ من زعزعةٍ واضطراب تنتج عنها حبْسة اللسانَ.

أمَّا في موضع سورة طه فَلم يتلُ فعلَ التكليف الإلهي لسيدنا موسى خوفٌ معينٌ كموضعي الشعراء والقصص؛ فَلَم يُعلم وجه النَّقص الذي أراد إكماله سيدنا موسى أو المشكلة الأولى التي يريد حلها فتَعَيَّن بذلك ضرورة التَّصريح بها، وهي عُقدة لسانه في قوله: ﴿عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧] طالبًا حلها ﴿ٱحۡلُلۡ﴾.

المبحث الثاني

اللسان والشهادة

اشتُهر اللسان في مقام الشَّهادة شهرةً ظاهرةً ظهور البيِّنة الناصعةِ في الحكم الجليِّ، وكان هو القائم مقام الشُّهود على المدَّعى عليهم، فكم من شهادةِ صِدقٍ نجَّت صاحبها من الهلاك، وكم من شهادةِ زُورٍ أوردت صاحبها الموارد، وقد سبقت الإشارة إلى شهادة اللسان في قطع الرِّقاب والإيقاع بالخصوم في أقوال العرب البليغة وأمثالهم الحكيمة كقولهم: «ربَّ حجَّة، تأتي على مهجة»[(١)]. وقد وردت مفردةُ اللسانِ القرآنيةُ في سياق الشَّهادة السابق ثلاث مرات في مواضع ثلاثةٍ منه، وهي على الترتيب:

- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].
- وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].
- وقوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩].

وترتقي بلاغةُ القرآن العظيم في التَّعبير باللسان في سياق الشَّهادة إلى قمَّةٍ باذخةِ الرِّفعةِ والعلوِّ لا يصل إلى دلالاتها أيُّ بيانٍ، ولا تُطاولهَا فصاحةٌ بشريَّةٌ أو جنِّيَّة ولو كانتا لبعضِهما ظهيرًا، إنها إعجاز في حدِّ ذاتها، وتلك حكمة من الله بالغة. ففي موضع «سورة النور» يتصدَّر اللسان قائمة الشُّهود من بين سائر أجزاء الجَسد الأخرى؛ كاليدين والرجلين، أمَّا عن السبب فتطالِعُنا به جماهير المفسرين بأنَّه لا سبيل إلى إنكار شهادته وهو جزء من أجسادهم ليس بالجزء الخارجي كالأهل أو الصاحب[(٢)]؛ فقد روى أبو سعيد الخدريُّ عن رسول الله

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان (ص١٩٨).

(٢) انظر مثلا: جامع البيان، الطبري (١٠٥/ ١٨)، وابن كثير، التفسير (٦/ ٢٣).

قولـه: «**إذا كان يـوم القيامة، عُرف الكافر بعمله؛ فيَجْحـدُ ويخاصم، فَيُقال له: هـؤلاء جيرانك يشـهدون عليك، فيقـول: كذَبُوا، فيقول: أهلك وعشـيرتك، فيقول: كذَبُوا، فيقول: احلفوا، فيحلفون ثم يُصْمِتُهم الله، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يُدْخِلهم النار**»(١).

كذلك فمن أسـباب الابتداء باللِّسـان في الشـهادة على أصحـاب بهتانِ الإفك يوم الشـهادة الكـبرى في القيامة، هو اشـتراكُ ألسـنتهم في الدُّنيا بافتراء الكَذِب على السـيدة عائشة المصون رضي الله عنها، «وتخصيص هذه الأعضاء بالذِّكْر مع أنَّ الشـهادة تكون من جميع الجسـد...؛ لأنَّ لهـذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنـات؛ فهـم ينطقـون بالقذف، ويشـيرون بالأيـدي إلـى المقذوفات، ويسْـعَون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف»(٢)، ولا يخفى أنَّ أشـدَّ الثلاثة إيلامًا في قذف المحصنات وأبعدها أثرًا، هو أذى اللسان.

وعليـه يكـون الخبر التقريـري في هذه الآية قد حمل شـهادةً عظيمة هي شـهادة ألسـنة الذين افتروْا على زَوج رسـول الله ﷺ أعظم الكَذب، ليس أدلَّ على عِظَمها من حشدها في سياق الرَّدِّ القرآني عن طهارة الصِّدِّيقة عائشة؛ فهي أطْهَـر من ماء السَّـماء؛ لذا فقد تضافرت الشـهود على براءتهـا، وإثبات الفِرية على مَن اقترفوها يوم القيامة، وقِمَّة البلاغة تكمنُ في إيعادهم بشـيء لم يُوعَد بـه حتى صريحو الكفر، وهو أن يقف اللسـان على رأس الشـهود عليهم رغم أنه ليس بعاقل، «وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنَّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهـم تشـهد عليهم بمـا أفكوا وبهتـوا... فأوجز في ذلك وأشـبع، وفصَّل وأجمل، وأكَّد وكرَّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشـركين عبدة الأوثان إلا ما

(١) مسند أبي يعلى، (٢/ ٥٢٧)، رقم الحديث: ١٣٩٢، وانظر: الدر المنثور، السيوطي (٦/ ١٦٥).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٥/ ١٩٢).

هو دونه في الفظاعة»[1]، وكفى بذلك إيعادًا وتهديدًا وخزيًا. من هنا نفقهُ كلام الزمخشري في تفَرُّدِ صورة التَّهديد والإيعاد هذه لهؤلاء الأفَّاكين على شخص رسول الله وزوجه «ولو فلَّيت القرآن كله وفتَّشت عمَّا أوعد به من العصاة لم ترَ الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف»[2].

وفي الموضع الثالث: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ يأتي اللسان في سياق العطف على الاستفهام التوبيخيِّ، ويأتي شاهدًا على صاحبه المُذنِب أيضًا لا شاهدًا له، قال مقاتلٌ: «نزلت في الحارثِ بنِ عامر بنِ نوفل، أذنب، فاستفتى النبيَّ ﷺ، فأمره أن يُكَفِّرَ، فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات، والنفقات، منذ دخلت في دين محمد»[3]، وفي هذا الشاهد اللساني توبيخٌ بالغٌ لصاحب القضية المُمْتَنّ بالإنفاق على كفاراته أو البخيل بها؛ لتُقَرِّعَهُ من طرفٍ خفيٍّ بتذكيره بعظيم مِنَنِ الله تعالى عليه، وسابغ آلائه التي **أوَّلُها:** عينيْه، **وثانيها:** من كان شاهدًا عليه وهو لسانه وشفتيه، **وثالثها:** هدايتُهُ لطريق النجاة ومسلك الخير باتِّباع النبيِّ المصطفى.

أما في الموضع الثاني فيأتي اللسان في سياق النَّهي الحقيقيِّ شاهدًا بالحقِّ والصدق، وهو لسان النَّبي المصطفى ﷺ شاهدًا على عَجلَته بتلقِّي القرآن من لدن حكيم خبير عن طريق أمينه جبريل، ليَأخذه على عجلة من الأمين ضانًّا به، خائفًا عليه، حريصًا على حفظه وإثباته في صدره؛ تمهيدًا لتبليغه إلى قومه

(١) الكشاف، الزمخشري (٢/ ٢٢٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٢٣).

(٣) وقيل: إنها نزلت في بعض صناديد قريش، أو في الوليد بن المغيرة، وقيل: في الحَارثِ بن عامر بن نوفل. انظر: البحر المحيط، أبو حيان (١٠/ ٤٨٢)، و اللباب، أبو حفص الحنبلي (٢٠/ ٣٤٥).

كاملًا تامًّا غير منقوص[1]؛ فتأتي هذه الشهادة لتذكيره ﷺ بمهمَّته وهي تلقِّي الوحي دون تحريك اللسان عَجَلَةً به، وبأنَّ مهمَّةَ جمعِهِ وإثباته في صدره وعلى لسانه هي مهمَّة البارئ الأعلى الشفيق على عبْدِه ومصطفاه ألا يعجَل بوحْيِه في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]. هذا ودلالة النَّهي في الآية واضحةٌ جليَّةٌ عن عدم تحريك اللسان مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه[2]؛ لأنه سبحانه سيجمعه له في صدره. وعليه فلا مانع من إجرائه في نفسه أو مراجعته.

وأما عن سرِّ التعريف والتنكير لهذه المفردة في هذا السياق؛ فقد جاءت مُعرَّفة بضمير الخطاب في حقِّ النَّبي المصطفى ﷺ لغرض التمييز والتخصيص، تخصيص لسانٍ معينٍ دون سائر الألسنة؛ إذ هو المتلقِّي للوحي السَّماويِّ دون سِواه، بينما ورد معرَّفًا بضمير الغيبة للغرض ذاته، وهو: تمييز نوعٍ آخر من الألسنة في حقِّ الأفَّاكين المفترين على أم المؤمنين السيدة عائشة المصون رضي الله عنها، لكنه جاء بضمير الغيبة لغرضي الإبعاد والتَّهكم، ولسَبْقِ الحديث عنهم في الآية السابقة عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

أما في موضع سورة البلد ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ فقد ورد منكَّرًا لغرضٍ معنويٍّ وآخرَ لفظيٍّ: أما المعنويُّ؛ فهو التَّقريع لذلك البخيل بإنفاق ماله على الكفَّارات تطهيرًا له موبِّخة له ومذكِّرةً إيَّاه بعظيم مِنن الله تعالى عليه الذي لا يوازيها أيّ إنفاق مهما بلغ، وأمَّا اللفظيُّ؛ فهو أنه جاء في سياق العطف على النكرة السابقة ﴿عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾؛ إذ الأصل أن يُعطف المعرفة على معرفة، والنَّكرة على نكرة.

(١) انظر مثلاً: اللباب، أبو حفص الحنبلي (١٩/ ٥٥٨).
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٤٠٤).

المبحث الثالث

اللسان ووصفه بالصدق

الوَصف بالصدقِ من أوصاف اللسان المشهورة التي جرت بها الألسنة وسارت بها الأساليب العربية؛ فقد قيل في المثل الذي ضُربَ لمن يُثْنِي على صاحِبه بالخير: «عليهِ من الله لِسانٌ صالحةٌ»[1]. أي: يذكره الله بنعوت الثناء الحَسن، والوصف الجميل بالخلال الطيبة، والأفعال الحميدة التي تُخلِّد ذكرَه، وترفع اسمَه في سجلِّ الخالدين. وهذا -لعَمر الله- من أعظم ما وُصِف به اللسانُ، وأجَلِّ ما جُعل من وظائِفه.

كما ورد هذا الوصف للسان عند العرب في التجرِبة والخبرة والممارسة التي تكشف عن الجوهر الثَّمين والمعدن الصَّقيل فقالوا في ذلك: «لسان التجربة أصدق»[2]، جاعلين للخبرة والتجريب لسانًا ناطقًا بالصِّدق دليلاً عليه.

وقد ورد هذا الوصف للسان في القرآن الكريم ثلاث مرات في مواضع ثلاثة منه أيضًا، هي على الترتيب:

- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].
- وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].
- وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وأوَّل ما يُلحَظ على هذا الوصف الجميل للسان في سائر هذه المواضع هو أنها أوصافٌ جاءت في حقِّ أفضل خلق الله أجمعين وهم الأنبياء المرسلون

(١) مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٨).

(٢) المرجع السابق، (٢/ ٢٥٧).

والعبَّادُ المصطفَوْن. فالسياق القرآني يرتفع بأوصاف اللسان -الذي هو ذو حدَّين- إلى الحدِّ الأعلى والأجمل والأرفع المُنَاسِب لمدح الفئة المختارة من أفضل خلق الله وهم أولو العزم من الرُّسل؛ فهم خِيارٌ من خيارٍ من خِيار. ففي موضعِ «الشعراء» يُطالعِنا النَّظم القرآني الشريف عن نبأ سيدنا إبراهيم إثْر قصَّته مع قومه المكذبين الذين كانوا على أصنامهم عاكفين، مجادلًا ومحاورًا لهم بأسلوب الدَّليل العقلي، والمجادلةِ الجادَّة المثمرة المتلَخِّصةِ في عجز الأصنام حتى عن إطعامهم أو شفائهم أو إجابة دعائهم فضلًا عن إحيائهم أو إماتتهم، لينتهيَ به المقام لمناجاة ربِّه بدعائه أن يغفر له ويتمّ نعمته عليه بإلحاقه بمنازل الصالحين في الآخرة ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وأن يزيده نعمة تامة فوق التمام السابق كلِّه، ألا وهي نعمةُ تخليدِ ذكرِهِ بالثناء الحسن بين سائر الخلق في الدُّنيا بعد موته ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]؛ و«لذلك ما من أُمَّة إلَّا وهم محبُّون له مُثنون عليه»[(١)].

إنَّ أريجَ الثناءِ العاطر لذِكْر السَّيد الكريم أبي الأنبياء «إبراهيم» وولده لَيفوحُ في كلِّ طريق، ومع كلِّ صَبَا، وعلى كلِّ لسان؛ ذلك لأنَّه امتنانٌ من ربِّ العالمين بأن تكفَّل برفع ذِكره عاطرًا على العالمين بأن اجتمعت الأممُ سابقها ولاحقها على مِلَّتِهِ وهي الحنِيفِيَّة السَّمحة[(٢)]، فتخلَّد ذِكره ولهج بحنيفيَّتِه سائر مُسْلمي الخلق حتى أكرمهم سيدنا محمَّد؛ حيثُ أُمِر ﷺ باتِّباع تلك الحنيفيَّة الإبراهيمية في غير موضع من الكتاب المُنَزَّلِ عليه؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي (٤/ ١٤٢).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١/ ١١٢).

﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٤، ١٠٥]، ثم أُمِر أن يبلِّغ بها قومَه في قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ثمَّ بلغ بتخليد ذِكْره إلى الغاية التي ليس وراءها مطلب بأن جعله قُدْوة حتَّى ادَّعاه أهل الأديان كلّهم(١)، كما في قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

أمَّا موضع «مريم» فيأتي وصف اللِّسان بالصِّدق فيها أيضًا مع أبي الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في سياق امتنان الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بألوان الهِبات وألطاف النِّعم السَّابغات؛ كهِبَة الولد الصالح على الكِبَر من زوجه العاقر العقيم بعد تجاوزها سِنّ اليأس، وهِبة جعل ذرِّيَّته أنبياء؛ فإسحاق ولدٌ لإبراهيم، ويعقوب ولدٌ لإسحاق، ويوسف ولدٌ ليعقوب عليهم السلام، وهِبة الجاه والأتباع والنَّسل الطاهر والذُّرِّية الصَّالحة(٢)، ثمَّ برفع ذِكْرهم على العالمين بعدها بلسان الصِّدق، وتلك نِعمٌ لم تسبق لأحد من قَبْله ولا تنبغي لأحد من بعده، غير من اصْطَفاهم سبحانه.

وإنما تكمنُ البلاغة كلُّها في الكناية بلفظ: «لسان الصِّدق» عن صفة الذِّكْر الحَسن والسِّيرة الطَّيِّبة؛ لأنَّه باللِّسان وحدَه تُذكر الهِبات السابقةُ كلها أبدَ الدَّهر على مرِّ العصور، وبدون نِعمتِه لا يرويها أحدٌ لأحد فَستُطمسُ بموتهم وانقضاء عصرهم.

أمَّا لِمَ جاء هذا الوصف العظيم بلسان الصِّدق مرَّتين -من الثلاثة مواضع- في حقِّ سيدنا إبراهيم وحدَه، فيُمكن تعليلُهُ بما قدَّمه من سابقات

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري (٣/ ٢٢)، ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٢١/ ٥٤٨).

(٢) انظر مثلاً: نظم الدرر، البقاعي (١٢/ ٢٠٩)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور (١٦/ ١٢٤).

في الإسلام لم يسبِقْه إليها أحدٌ من العالمين[1]، فقد اعتزل سائر الخلق في الله ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، ثم تبرَّأ من أبيه في الله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ثم قرَّب نفسه وولده ليذبحه قربانًا لله راضيًا مرضيًّا: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، وعادى الخلق كلَّهم في الله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وهو الذي وفَّى بعهد الله ووعده وفاءً تامًّا غير منقوص: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

أمَّا في الموضع الثالث لنعت اللِّسان بالصِّدق أو بالتَّصديق في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. فنجده يأتي في حقِّ القرآن العظيم ذاته، بأنَّه جاء مصدِّقًا لكتاب موسى وهو التوراة، أو لما بين يديه، أو لما تقدَّمَه من جميع الكتب[2]، ذلك أنَّه تضمَّنَ خبر النَّبيِّ محمد ﷺ وخبرَ مبعثِه الذي نزل في التوراة من قبله، فجاء مصدِّقًا لذلك الإخبار التَّوارتيِّ. لكن المُمَيِّزَ لهذا الموضع -من الناحية اللَّفظية- أمران، **الأول:** هو مجيءُ مفردةِ الصِّدق سابقةً للسان على غِرار الموضعين السابقين، **والثاني:** أنَّ مفردة الصِّدق هذه جاءت هنا اسم فاعل «مُصدِّق» وليس بمصدر «صِدْق» كالسابقَيْن. وهذا ما أفسح المجال أمام المُعربين لتعدِّد وجه إعراب اللِّسان في هذا الموضع، لِيُفْسِحوا بعدها للبلاغة ودلالاتها مجالاتٍ هي أمدّ ميدنًا، وأعجبُ حُسنًا، وأبعدُ غورًا.

فالمشهور من إعراب النَّحْويين للفظ «اللسان» وجهان؛ الأول: أنه منصوب على الحالية، وصاحب الحال ضمير مستتر في اسم الفاعل مُصدِّق،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٢١/ ٥٤٨).
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري (٤/ ٣٠١)، وتفسير الثعالبي، (٥/ ٢١٥).

«وجاز نصب لسان على الحال؛ لأنَّه بمعنى مُبين»[1]، أي: أنه حالٌ جامد مُؤوَّل باسم الفاعل المشتق مبين.

أمَّا الوجه الثاني: فهو مفعول به لاسْمِ الفاعل مُصدِّق، وعليه يتوجه الضمير في مصدِّق إلى شيء غير القرآن الكريم وهو لسان النَّبيِّ محمد ﷺ، «ويجوز أن يكون مفعولًا لمصدق؛ أي: هذا الكتاب مصدق لسان محمد ﷺ»[2].

وأمَّا من ناحية الدَّلالة البلاغية البليغة؛ فعلى الإعراب الأول -الحال- يكون نزول القرآن الكريم مصدِّقًا تصديقًا لسانيًّا للتوراة وللكتب من قبله بشأن الرِّسالة المحمَّدية، أي: حالُهُ التصديق؛ فقد جاء في القرآن على لسان سيدنا المسيح قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦][3]، كما نزل فيه على النبيِّ محمد ﷺ التصديق للاثنين معًا في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]. وعليه فالقرآن الكريم يكون -بهذا الوجه- لسانًا ناطقًا بصدقِ أخبار التوراة وسائر كتب الله غير المُحرَّفة، وفي هذا ارتفاع بقيمة المدح باللِّسان إلى درجة عليا؛ حيثُ جُعِل القرآن ذاتُه لسانًا يصدح بصدق الكتب من قبله، وتلك حكمة بالغة ودلالة بليغة.

على أنَّ هذه الدَّلالات البليغة لهذا الوجه من التَّعبير لا تقف عند هذا الحدِّ، بل تمتدُّ لتشمل الوجه الآخر من الإعراب وهو وجه المفعولية، «وقالت فرقة: لِسانًا مفعول به لمُصَدِّقٌ، والمراد على هذا القول باللسان: محمد رسول

(١) إعراب القرآن، النحاس (٤/ ١٠٧)، وإعراب القرآن وبيانه، الدرويش (٩/ ١٧٤).

(٢) التبيان في إعراب القرآن، العكبري (٢/ ١١٥٥)، وانظر: إعراب القرآن وبيانه، الدرويش (٩/ ١٧٤).

(٣) وانظر أيضًا: آل عمران: ٥٠، والمائدة: ٤٦.

الله ولسانه»[1]. وذلك بطريق المجاز المرسل ذي العلاقة الآلية؛ إذ اللسان هو آلـة اللُّغة، بمعنى: لغةً عربيةً فصيحة مبينةً يصدُقُ بها النبيُّ محمدٌ في تبليغه عن ربِّه؛ فيكون الرَّسول ﷺ حينها هو لسان الصِّدق الذي تَلَقَّى آخر وحي السَّماء إلـى الأرض ونقلـه بالأمانة كلِّهـا وبالصدق كلِّه، كيف لا وهو لسـان الصِّدق كمـا يـدلُّ عليه وجه إعراب الآية الأخير. وعليه نلمح من هذا الوجه أنَّ لسـيِّدِ المرسـلين نصيبًا من سـياق المدح بلسـان الصِّدق في القـرآن الكريم ذلك أنَّ هذا الوجه من المـدح جميل وجليل حاز أبو الأنبياء إبراهيم نصيبَه الأوفى منه في الموضعيـن الأوليـن في القرآن، ثمَّ بهذا الوجه الإعرابـيِّ لهذا الموضع كان لسيدنا محمد ﷺ نصيبُهُ منه، وهذه حكمة أخرى بالغة.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٥).

المبحث الرابع

اللسان ووصفه بالكذب

إذا كان المدح بصدقِ اللِّسان مدحًا جليلًا، واعترافًا بفضلٍ عظيم غير مسبوق، وتخليدًا لسبْقٍ مُقدَّرٍ غيرِ ممنون، فإنَّ الذَّم بكذب اللسان على النَّقيض من ذلك يقف على قمَّة الوصف السيِّءِ والنَّعت الشَّائن والنقصِ المُخْزي، حيث جاء في النَّص القرآني الشَّريف دائمًا مع أعظم المفترين الباهتين، وهمُ المفترون على ربِّهم جلَّ وعزَّ بدخولهم في خصوصيَّاته؛ حيث حرَّموا بعض حلاله، أو حلَّلوا بعض ما حرَّم لغاية دنيوية دنيئة في أنفسهم. ونلاحظ في هذا الموقع من المعنى المتعلق ببلاغة دَلالات التَّعبير بمفردة اللسان في القرآن الكريم، ورودَ لفظة اللسان مجموعةً كلها في حين أنَّ وصفَهُ بالصِّدق في المبحث السابق جاء كلُّهُ مفردًا، في إشارةٍ بليغة إلى أنَّ الكذب متعدِّد الأقوال، أمَّا الصدقُ فواحدٌ دائمًا، وجميع ما عداه فهو كذب. إضافة إلى مجيئها في سياق الكذب بشكل عام، إمَّا صراحة كموضعي «النحل»، وإمَّا بالتكنية كموضعي «النور» و«الفتح» بصيغة «ما ليس لكم به علم، وما ليس في قلوبهم».

وقد ورد هذا الوصف للسان في النَّظم الشريف مرات أربع، في أربعة مواضع منه، أحدها في سورة النَّحل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

فقد جاء الوَصْف بالكذب لِما تفوَّهت به ألسنة أولئك المفترين من الضَّالين والكافرين وبعض أهل الكتاب بالافتراء عليه سبحانه فيما شرَّع بتحليل بعض ما حرَّم، وتحريم بعض ما حلَّل، كقولهم بتحليل ما في بطون الميتة

وهي محرمة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، كما حلَّلوا الميتةَ والدَّم ولحمَ الخنزير، وتحريمهم البحائر والسوائب والوصائل وهي حلال، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقولهم بتحليل بعض الأشهر الحرم في سنة وتحريمها في أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧]، إلى غير ذلك ممَّا تجرأوا بافترائه على الله[(١)]، كما قد يكون الكذب بَدَلاً من الوصف المقصود في الآية، أي: أنَّ وصفهم هو محض كَذِب لا غير على قراءة «الكذبِ» بالكسر؛ فيكون بدلًا من المصدر المؤوَّل المجرور المُنْسبِك من ما المصدرية والفعل في ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾[(٢)]، على تقدير: ولا تقولوا للوصفِ الكذبِ هذا حلالٌ وهذا حرام.

وكذا في الموضع الآخر للسان في هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. جاء مع ضِربٍ آخر من فريَتهم لوصفٍ كاذبٍ جرت به ألسنةُ المشركين مع الله آلهة أخرى وهو افتراء نِسبة البنات -التي يكرهونها لأنفسهم- إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ما سبقت إشارة سياق السُّورة إليه في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، بينما ينسبون

(١) انظر السابق (٣/ ٤٢٩).

(٢) انظر المرجع السابق، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ١٩٦).

الحُسنى بالبنون -في اعتقادهم- لأنفسهم، أو أنهم يصفون أنفسهم بالفوز برضوانِهِ تعالى وثوابه وجِنانِه رغم ما اجترحوهُ من عظيم الفرية عليه[1]؛ فاستحقوا بذلك وصف «المفْرَطُون»، وهو وصفٌ لم يوصف به مجرم أو كافرٌ قط في القرآن العظيم غيرهم؛ لأنَّ الفَرَط هنا هو تَقَدُّمُهم إلى جهنم تقدُّمًا لا يسبقهم إليها أحدٌ من بين سائر مستحِقِّيها جزاءً وِفاقًا لهم على افتراءاتهم على ربِّهم[2].

والحقَّ أنَّ هذا الوصف يسترعي الانتباه، ويستصغي الآذان بوروده مرَّة واحدة وحيدة في النَّص القرآني؛ فهو على إفراده إلَّا أنه يتضمَّن معانيَ يشيع منها الخِزي والإذلال والشّنار، فمن معاني الفَرَط في اللُّغة: التقدُّم والسَّبْق، والظُّلم والاعتداء، والترك والغفلة عن الشيء[3]، وكلها متحقِّقة في أولئك المفترين؛ فَهُم مِن أوَّلِ مَن تُسَعَّر بهم جهنم لِتقديمهم إليها يوم الحساب سابقين غيرهم من العُتاة والمجرمين، ثمَّ إنهم مقترفون لأعظم الظُّلم وأغرب الاعتداء على خصوصيات البارئ الأعلى سبحانه، كذلك فهم متروكون منبوذون، وهم للنَّبْذِ والطَّرد والتركِ أَهْلٌ بما بدرَ منهم من ترك طاعة ربِّهم والغفلة عنها إلى التَّخَرُّصِ عليه بأعظم الفِرَى. فلم يكتفِ المولى جلَّ جلاله بعقوبَتِهم باستحقاق عذاب النار في ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمُ ٱلنَّارَ﴾، بل ميَّزَهم عن سائر المجرمين من داخيلها بالتقدُّم إليها من دونهم.

(١) انظر مثلاً: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) انظر: خواطر حول القرآن، الشعراوي (١٣/ ٨٠٣١)، ولم ترد هذه الصيغة في القرآن الكريم في غير هذا الموضع البتة، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد عبد الباقي (ص٦٢٦).

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/ ٣٦٦-٣٦٩).

أمَّا الموضع الثالث للمنظومة المعنوية القرآنية في اتِّصاف اللسان بالكذب فكانت في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

في هذه الآية تأتي مفردة اللسان تارةً أخرى في حقِّ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق السَّيدة عائشة الطَّاهرة المُطهَّرة إثر سياق حديث الإفك المزعوم والزعم الباطل المأفوك. ولقد سبق الحديث عن إبداع البلاغة القرآنية في سرِّ اختيار اللسان -مفردًا- لتَصدُّرِ قائمة الشهود على أولئك الأفَّاكين الخائضين فيما لا ينبغي لهم ولا لغيرهم الخوض فيه، وذلك عند الحديث عن اللسان في سياق الشهادة[1]. فإنَّ تلك الدُّرة البلاغية ودلالاتها تكتملُ هنا بِدُرَّةٍ أخرى لتُكوِّنَا معًا عقدًا بلاغيًّا فريدًا يُقرأ على مرِّ الأزمان وتترصَّع به قلادةُ الطُّهر والعفاف التي تتألَّق على اسم الصِّدِّيقةِ رضي الله عنها كلما ذُكرت، وتُزيِّنُ منظومة البِشْرِ والانطلاق على مُحيَّاها كلما تذكَّرت إعجاز النظم الإلهيّ المُحكم الذي شاء الله أن يُبرِّئها فيه من فوق السَّبع الطِّباق.

أمَّا عن تفصيل هذه الدُّرة الدّلالية التي تَتَفَتَّقُ من أسلوب الشَّرط البلاغيِّ في هذه الآية التي حملت مفردةَ اللسان بصيغة الجمع المضافة إلى ضمير خطاب الخائضين في ذلك الإفك ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾. فَتَنْصَدِع عن لآلئَ خَرِيْدةٍ مفصَّلةٍ من الدَّلالات الفريدة، ومردّ هذه الدَّلالات إلى ثلاثة أمور:

- **أولها:** جمع اللسان؛ ليدلَّ على خوض مجموعة ليست بالقليلة في ذلك الحديث الآثم، ولِيَدلَّ على تَعدُّدِ تخرُّصاتِهم بغير علمٍ، وكثرة أقاويلهم المُفتراة.

(١) في الآية التي سبق تحليلها في فِقرة اللسان والشهادة، وهي [النور: ٢٤].

❍ **ثانيها:** دلالة التَّقريع والتَّأنيب الكبير الذي يَرشَح من ضمير أولئك المخاطَبين الخاطئين بفَعْلتِهم من اجترائهم على التَّلَسُّنِ في عِرْض أطهر من دبَّ على البَسيطة بسوء.

❍ **ثالثها:** نوعية فعل السَّماع الذي يَشي بكيفيتِه، وهو فعل التَّلقِّي لذلك الخبر ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾، وهذه الكيفية المقصودة هي السُّرعة السَّريعة التي تنتشر بها أمثال تلك الأحاديث في المجتمعات، فكأنها كُرَةٌ خفيفةٌ تتلقَّفُها الأيدي خِلسةً بشكلٍ خاطف؛ فتنْتَشر انتشار النار الضرام في الهشيم اليابس دون أن يظهر ذلك حتى لصاحب الأمر ومُتَعَلِّقِه تمامًا كما لم تعلم به سيِّدتنا عائشة رضوان الله عليها. وما ذاك الخطْف وتلك السُّرعة للحديث المخوض فيه إلَّا لأنه زعمٌ باطلٌ، وكذبٌ مُفترى، وجهلٌ تامٌّ من غير علم، «وهذا الإفك ليس إلَّا قولًا يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب»[1].

ثم انظر بعد ذلك -ممتِّعًا ناظريْك وناظرَي الزمان- في بلاغة التَّعبير القرآني باللِّسان والألسنة؛ حيثُ اجتمع الجهل والحِقْد الدَّفين مع التَّخرُّصِ وعدم التَّثَبُّت في سياق السُّرعة في إفشاء ذلك الحديث وإذاعته دون وَعْي ودون تفكير، فمعلوم أنَّ تلقِّي الأخبار يكون بالأُذن لا بالألسنة، لكنَّه من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلَقَّوْنَهُ بألسنتهم، كأنَّ مرحلة السَّماع بالأذن قد أُلغيت[2]، وبمجرد السَّماع تَقَوَّلوا بهتانًا عظيما وفِرْيةً كُبرى دون أدنى تدقيق من عقل أو تمحيص من عاطفةٍ أو وجدان، أو رادعٍ من خلقٍ أو ضمير. كلُّ هذه المعاني

(١) الكشاف، الزمخشري (٣/ ٢٠١٩)، وانظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (٢٣/ ٢٤٣).
(٢) انظر: خواطر حول القرآن، الشعراوي (١٦/ ١٠٢١٨).

واللطائف، وتلك العواطف والمشاعر والمنازع تضافرت تَتْرَى في ذهن المُخاطب المتتبع لبلاغة السياق القرآني في التعبير باللسان.

وتكتمل فصول هذه المنظومة البديعة لأوصاف اللسان في القرآن الكريم بالموضع الرابع والأخير لها، وهو في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

نزلت هذه الآية في بعض مَن تخلَّف من قبائل مُزينةَ وجُهينةَ وأَشْجعَ وأَسْلمَ وغيرها عن رسول الله ﷺ في غزوة الحُديبية حينَ خرجَ مُعتمرًا حذِرًا من قريش أن يحاربوه؛ معتذرين بانشغالاتهم العديدة بأموالهم وأولادهم، طالبين من النَّبيِّ ﷺ أن يستغفر لهم الله[1]، ثمَّ تجيء مفردة اللسان بصيغة الجمع في الجملة القرآنية التالية مباشرة ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ لتُضْفيَ دَلالة مهمَّة للسِّياق هي دَلالة كذبهم في اعتذارهم السَّابق وطلب استغفارهم المزعوم[2]، فاعتذارهم وطلبهم الاستغفار غير صادرٍ من قلوبهم؛ إذ إنَّ قلوبهم قد عششَّ فيها النِّفاق، وتعَمَّقَ فيها الصُّدود، وأُشْرِبَ فيها الكذب. فجُلُّ مطلبهم وغاية مقصدهم هو ترميمُ صورتهم الخارجية أمام النَّاس، لا جدِّيةُ الاعتذار أو صِدْقُ الاستغفار.

والملاحظ أنَّ الأسلوب في هذه الآية يتميَّزُ عن الأسلوب في الآية السابقة بميزتين، **الأولى**: عدم تضمُّنها مجازًا مرسلًا، **والثانية**: مجيء القول فيها بغير الذي في القلب، أمَّا آية «النور» السابقة فكانت بنفي العِلم ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾. وإذا كان التلقِّي والتَّلَقُّفُ في حديث الإفك صادرًا عن حسَدٍ

(١) انظر: مثلاً تفسير السمعاني (٥/ ١٩٥)، وتفسير أبي السعود (٨/ ١٠٧).
(٢) انظر المرجع السابق ذاته.

نابعٍ من القلوب التي أُشربتَه -في الموضع السابق- وعن نارِ حقدٍ دفينٍ تشتعلُ أثافِيه في أفئدتهم؛ فإن القول الصادر من اللسان في هذه الآية ليس نابعًا من القلب وليس غرضُهُ الدخولَ إلى القلب، بل هو محض كذبٍ قوليٍّ لا يُجاوِزُ الأُذن ولا اتصال له بنياط قلوبهم البتَّة؛ ذلك أنَّهم قالوه دفعًا للتُّهمَّة وتحرُّجًا من القوم ألا يُفْتَضحوا بنفاقهم، غير مكترثين للنَّتيجة من قبول استغفار النَّبيِّ لهم من عدمه؛ فهم خاسرون لا محالة يوم القيامة، ثمَّ هم مدركون لتلك الخسارة، «ولمَّا كان طلب الاستغفار منهم ليس من اعتقاد، بل على طريقة الاستهزاء، وكانت بواطنهم مخالفةً لظواهرهم فضحهم الله بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وهذا هو صنيع المنافقين»[1]، على غِرار مفتري الإفك -في الآية السابقة- فكان كلام ألسنتهم مُعبِّرًا عمَّا تُكِنُّه قلوبهم من أحقاد كما أسلفنا.

وإذا كانت الآية السابقة قد تضمَّنت مجازًا مرسلًا علاقته الجزئية في ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ باستعمال الأفواه استعمالًا مجازيًّا بمعنى الألْسُن؛ لأنَّ اللِّسان هو آلة القول وسببُه، فإنَّ هذه الآية قد استعملت النُّطق باللسان استعمالًا حقيقيًّا لا مجاز فيه؛ ذلك لأنَّ الموقف في سورة «النور» كان مقامَ سماعٍ بإخفاءٍ وسرعةٍ تُلْمَح من التَّلقُّفِ السريع دون تدقيق أو إعادة نظر، لكنَّ الموقف في آيتنا هذه مغايرٌ تمامًا؛ إذ حرص المخلّفين من المنافقين على الجهر بالأعذار وطلب الاستغفار علانيةً لتجليةِ أمورهم للعامَّة لترضى عنهم؛ لأنَّ ذلك هو غايتهم لا تحقيق رضاء الله أو تحقيق شفاعة رسوله. وعليه فإننا نَلْمَسُ هنا روعة التَّعبير القرآني وبلاغته الكامنة في إعطاء كلِّ معنًى فرعيٍّ دقيق لفظ طريفٌ خاص به ودالٌّ عليه ومُمَيِّزٌ له عن غيره، وتلك حكمة أخرى بالغة.

(١) فتح القدير، الشوكاني (٥/ ٥٧).

المبحث الخامس
اللِّسان لغة للقوم

يُطلَق اللسان في السياق القرآني ويُرادُ به اللُّغة المنطوقة أحيانًا كثيرة من باب المجاز المُرسل ذي العلاقةِ الآلية التي تُذكر فيه الآلة ويُراد ما ينتُجُ عنها، أو ما تُستعمَل فيه، كإطلاق العين على الرُّؤية؛ لأنَّ العين هي آلة الرؤية كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، «وإطلاق اللِّسان وهو اسم الجارحة المعروفة في الفم على اللُّغة مجاز شائع؛ لأنَّ أهمَّ ما يستعمل فيه اللسان هو الكلام»[(١)]. ولقد وردت مفردة اللسان في هذا السياق مُرادًا بها اللُّغة ثمانِيَ مرات، أربعًا منها أريد به اللسان العربي صراحةً وهو لسان النبيِّ محمَّد ﷺ من اللُّغة العربية الفصيحة، ومرة واحدة أُريد بها اللِّسان العربي ضمنًا مع غيره من اللُّغات في سورة «إبراهيم»، والسادسة أريد بها اللُّغة العبرية وهي لسان بني إسرائيل بنصِّ كلامِ اثنين من أنبيائهم هما سيدنا داود وسيدنا عيسى بن مريم صلى الله عليهما وسلم، والسابعة بمعنى اللُّغة الأعجمية وأريدَ بها لُغة النصارى «الرومية» في مقام المفارقة بينها وبين العربية في موضع النَّحل، أمَّا الثامنة فكان المُراد بها لغات البشر عامَّة دون تعيين للغة قوم بعينهم في سورة الروم، فقد جاءت في سياق التَّفكُّر في عظيم مِنَنِ الله تعالى وتفرُّد آلائه على خلقِه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والمُراد فيها هو بيان نعمةِ الله على النَّاس باختلاف لغاتِهم التي يتعاملون بها، فللفُرس لغة، وللتُّرك لغة، وللعرب لغة، أو اختلاف نغمات تلك اللُّغات

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٣٢١).

فلا يتفق اثنان في نغمة واحدة[1]، وهي نِعمة فريدةٌ مُستَجلِبةٌ للتفكُّر ولطلبِ العلمِ، وهل أمثلة المقارنات بين اللُّغات ومعرفة أسرارها وما تتميَّزُ به كلّ واحدةٍ منها عن غيرها إلَّا جزء من طلب العلم، فماذا كان سيكون الحال لو توحَّدت لغات العالم على لسانٍ واحد؟! لهذا جاءت نعمة اللسان هذه سابِقةً لنعمة اختلاف الألوان وصور الأشكالِ الإنسانية للتَّنبيه على التَّفكُّر فيها تمامًا ككثرة التَّفكر في اختلاف الأشكال والصُّور أبيضها وأسودها وأحمرها، وهذا ما يلتقي تمامًا مع السِّرِّ المعنوي الذي خُتمت به هذه الآية الكريمة من بين السَّبع آيات ذات المطلع الواحد ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ في هذه السورة دون غيرها، مع اختلاف خواتيمها[2]؛ فقد خُتمت بالاعتبار من أولى العلم دون سواهم «لأنَّ كلَّ واحد مُنفرد بلطيفةٍ في صوته يمتازُ بها عن غيرها، حتى لا ترى اثنين في ألف يتشابه صوتاهما، ولا يتم الوصول إلى معرفة هذا إلا بالعلم»[3].

أمَّا اللسان المُراد به اللُّغة العبرية فأريد بها معنًى واحدٌ أيضًا هو معنى الذَّم لمكذِّبي بني إسرائيل، وقد جاء في سياق البيان الربانيّ القرآني بالنَّصِّ على تعذيبهم ولعنهم، ثم مسخهم قردةً وخنازير، وهو عند قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري (٣/ ٤٧٣)، وتفسير السمعاني (٤/ ٢٠٥).

(٢) ورد في سورة الروم سبع آياتٍ كريمات تبدأ بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ لكن فاصلتها مختلفة ما بين (ثم إذا أنتم تنتشرون، لقوم يتفكرون، للعالِمين، لقوم يسمعون، لقوم يعقلون، إذا أنتم تخرجون، لعلكم تشكرون» وهي الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٤٦) على الترتيب. ولكل فاصلة منها دلالة تُناسب المعنى المطروق.

(٣) أسرار التكرار في القرآن، الكرماني (ص٢٠٢).

إنَّ بني إسرائيل من أصحاب السَّبت وهم قوم سيدنا داود، ومن أصحاب المائدة وهم قوم سيدنا عيسى، قد استحقُّوا اللَّعن والطَّرد من رحمة الله إلى عذابِه ونكاله بما اقترفوا من خطايا وما ارتكبوا من آثام أفظعها الاعتداء على أنبيائهم بالقَتل، وهذا ما لمْ يَحدُث في قومٍ من العالمين؛ فجاء لَعنُهُم بكلِّ لُغة وعلى كلِّ لسان. ثمَّ جاء لعنُهم في هذا الموضع على ألسنة أنبيائهم في كتبهم المُنزَّلة باللُّغة التي يفقهها بنو إسرائيل من اللُّغة العبرية بقولهم: «اللَّهم العَنْهم واجعلهم آية؛ فمُسِخوا قردةً وخنازيرَ»[(١)]. وإنما جاءت إضافة اللُّغة إلى الأنبياء الكِرام في هذا الموضع؛ لأنَّ بني إسرائيل كانوا يتباهون أنهم من أبناء الأنبياء؛ فجاء لَعْنُهم على لسان الأنبياء ذاتهم[(٢)]. وأجلى دليل على أنَّ المقصود باللِّسان هو اللُّغة التي ينطقها اللِّسان هو قول سيدنا داود وعيسى بلفظ اللَّعن[(٣)].

أمَّا اللسان الوارد في القرآن الكريم والمراد به اللُّغة العربية فتنوَّعت المعاني التي طُرِقت به وتعددت مشاربه، فهو تارة يأتي في سياق التيسير للقرآن المُنَزَّلِ على النبيِّ للبشر طائعهم وعاصيهم مُبشرًا ونذيرًا، وذلك في موضعين من القرآن المجيد، أولهما في سورة «مريم» عند قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، والثاني في سورة «الدُّخان» عند قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

فأمَّا موضع مريم فاقترن التيسير الإلهيُّ باللِّسان فيه بنقيضين هما البشارة والإنذار؛ الأولى مع المُتَّقين، والأخرى مع الألدَّاء المُعانِدين، أي: المبالغين في الخصومة والجِدال بالباطل فـ «الكلام واحد والخطاب واحد، وهو لقوم

(١) انظر مثلا: الكشاف، الزمخشري (١/ ٦٦٦)، ومفاتيح الغيب الفخر الرازي (١٢/ ٤١٢).
(٢) انظر مفاتيح الغيب، الفخر الرازي (١٢/ ٤١٢).
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (١/ ٥٧٣).

تيسير، ولآخرين تخويف وتحذير»[1]. ومن المعلوم أنَّ تيسير القرآن متعدِّد المشارب والوجوه؛ كتيسير معانيه، وتيسير حفظه، وتيسير أدائه وغيرها، وما يَهُمُّنا هنا هو تَتَبُّعُ الوجه الذي وقع به التيسير في هذا الموضع، وهو أنه نزلَ باللُّغة السهلة القريبة من الفَهْم البعيدة عن الغموض «ووقع التيسير في كونه بلسان محمد عليه السلام وبلُغَته المفهومة المُبينة»[2]؛ إذ الصُّعوبة جميعها والعسر كُلُّه في محاولة فَهْم لغة مُعقَّدةٍ غامضة لا يفهمها المرء ولا يدري أمرها من نهيها، ولا يتبيَّن وعدها من وعيدها.

وأمَّا موضع الدُّخَانِ فاقترن ذلك التيسير باللِّسان بغاية واحدةٍ وحيدةٍ هي التَّذكُّر، تَذكُّر الحِكمة من إنزاله تحديدًا باللسان العربيِّ دون سواه وهي التيسير، دلَّ على هذا الأداة الحاصرة «إنما»؛ فكأنَّ القرآن الكريم لا يكون سهلًا للفَهْم يسيرًا للتذكُّر إلَّا بكونه نازلًا باللُّغة العربية دون سواها، وفي هذا ذكرى للذَّاكرين. وتَبرزُ العلَّة البلاغية لهذا القِصَر ببيان نوعِه وهو قصر قلب[3]؛ فلمَّا قابل المشركون إنزال هذا القرآن في ليلة القدر المباركة بالشكِّ واللَّعبِ الهازئ في مطلع السورة عند قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، حَسُن الرَّدُّ عليهم بِقَلبِ مُعتقَدهم وردِّ الحجَّة عليهم من حيث إنَّ اللُّغة التي نزَلَ بها هي لُغَتُكم التي بها تتحدَّثون وبها تُفاخرون وعنها تُدافِعون.

ثمَّ تتضافر الإمكانات التعبيرية الأخرى في آيتنا الكريمة لتدعيم معنى الحصر وتثبيته؛ فالباء الجارة لِلُّغةِ في «بلسانك» معناها السَّببية؛ فعِلَّةُ التسهيل القرآني أيضًا هي اللُّغة العربية وبغيرِها ربَّما اعتوَرَ التنزيل شيء من الصعوبة إنْ

(١) تفسير القشيري (٢/ ٤٤٤).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٤/ ٣٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٣٢١).

لم تكُن الصعوبةُ كلها، ثُمَّ أضيفت اللُّغة إلى ضمير الرسول محمد ﷺ إضافةَ رفعٍ؛ لمكانته وعِنايةً بجنابِ مقامِه الرفيع، «والباء في بلسانك للسَّببية، أي: بسبب لغتِك، أي: العَربية، وفي إضافة اللِّسان إلى ضمير النبيِّ ﷺ عِنايةٌ بجنابِه وتعظيمٌ له»[(١)].

وتارةً أخرى يأتي اللّسان مُرادًا به اللُّغة العربية في سياقِ الإبانة والجلاء والإفصاح، وذلك موضعين من النَّظم الشريف أيضًا، وقع أولهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. بينما وقع الثاني في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فكلا المقامين جاءا في مقامٍ عامٍّ هو مقامُ بيانٍ للُّغة التي نزل بها القرآن، وهي اللُّغة العربيّة في وضوح تراكيبها، وفَهْم ألفاظها وضوحًا كاشِفًا لما للإنسان ولما عليه، محيطًا بكلِّ أقضية الحياةِ، قاطعًا لعذر عدم الفَهْم، مُقيمًا لحجَّة البلاغ السَّهل الميسور؛ لأنَّه لو نزل بغيرها لكان مَظَنَّةِ الدعوى بِتَعذُّرِ الفَهْم أو سوئه[(٢)].

أما مقامُ موضِع «الشعراء» الخاص، فهو ما دَلَّت عليه الآيتان السابقتان له، وهما قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] إنَّه مقام موضع التَّنَزُّلِ الدَّقيق للوحي القرآني، وهو قلب النبيِّ محمد ﷺ دون سواه. فإذا كان القرآن قد نزل على قلبه ﷺ خاصَّة، فكيف يتَلقَّاه الآخرون وكيف يسمعونه ويحفظونه؟ هنا يأتي دَوْر اللسان العربي الذي

(١) المرجع السابق (٢٥/ ٣٢١).

(٢) انظر مثلا: اللباب، أبو حفص الحنبلي (١٥/ ٨٠)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٦٢).

يُخرِج القرآن إلى النَّاس[1]. وعليه يكون مُبتدأُ التَّنَزُّلِ هو قلبُ الرَّسول بعدها يكون منتهاه قلوب المتلقِّين والسامعين من البشر أجمعين؛ لأنَّ اللِّسان هو وسيلة الإخراج والانتشار والذُّيوع والصِّيانة والقراءة، فإذا كانت هذه الآلةُ هي أوضح اللُّغات وأفصحها، أصبح بذلك الآلةَ التي من نتاجِها تعملُ الأذنُ بالاستماع والإنصات، ويعمل العقل بالتَّدبُّرِ والافتكار، وتُطَبِّقُ الجوارحُ بالطَّاعات والابتعاد عن طريقِ الفُجَّار.

وأمَّا المقام الخاص لموضع سورة «النحل» فهو مقامُ الإبطال لطعنِ الكافرين على القرآن وعلى النبيِّ الذي أُنْزِلَ عليه ومقامُ الرَّدِّ عليهم وهو عند قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾، لِمَا رُوي أن المشركين قالوا: إنَّ النبيَّ كان يتعلم من سماعِه للغةِ غلامين نصرانِيَّيْن كانا يقرآن كُتبًا بلسانَيْهما[2]. فالمشركون في هذا الموضع مالوا في طَعْنهم على القرآن ميلًا عظيمًا بِنِسبَتِه إلى لغةٍ أعجميَّة[3]، وهو ميلٌ مُثير لكلِّ أنواع الاستغراب، فكيف لأسلوبه الفصيح الذي ما إن سمعتموه حتى اعترفتم له بالتفوُّقِ والبراعة، ووقفتم أمامَ مُجاراتِه عاجزين، وأمامَ علوِّ فصاحتِه مُندهشين، كيف له أن يكون تعليمًا من لغةٍ أعجمية لا تُبين؟! وهذا هو الموضع السَّابع الذي جاء فيه اللِّسان بمعنى اللُّغة في التنزيل الحكيم، وهو الموضعُ الوحيد الذي أُريدَ به اللُّغة الأعجميَّة، وهي هنا لُغة النَّصارى تحديدًا، أي: الرُّومية.

(١) انظر: خواطر حول القرآن، الشعراوي (١٧/ ١٠٦٩٢).

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي (ص٢٨١).

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان (٦/ ٥٩٦).

وهنا نَخْلُص إلى الموضع الثَّامن والأخير لمواضع اللِّسان اللُّغة في القرآن الكريم، وهو ذاك الذي في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]. فقد جاءت اللُّغة (اللسان) في سياق أسلوب القصر البليغ تارة أخرى مع ما يتَطلَّبُهُ من ردٍّ على زعمٍ بطلب إنزاله بلغةٍ غير العربية، فتضمَّنَت قصرَ إرسال الرسول على لغة (لسان) قومه فقط، ونفي أيّ لسانٍ آخر عن رسول القوم. وجاء اللسان مقصورًا عليه من باب القصر الإضافي، بمعنى: أنَّ صفة إرسال الرُّسل خُصِّصَت بموصوفٍ هو لُغة أقوامهم دون نفي اللُّغة عن غير الإرسال؛ فهي لُغَة تخاطُبِ القوم ولُغة مأكلهم وملبسهم وحياتهم التي يتعاملون؛ ليقلِبَ اعتقاد المُخاطَبين من المُشركين الذين يَتَعَيَّنُ أنهم قالوا: هلَّا أُنزلَ القرآنُ بلغة العجم[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٣/ ١٨٥).

المبحث السادس

اللِّسان مع السوء عمومًا

يُلاحظُ في هذا الجزء الأخير من البحث أنَّ مفردة اللِّسان في القرآن الكريم جاءت بمعنى الجارحة المحضة في سياقات من التعبير عن أفعال أو معانٍ سيِّئة عامَّة، فهو -كما قدَّمنا- على كثرة منافِعِه فإنَّه إن استعمل في الشرِّ انقلبت حسناته إلى سيِّئاتٍ واستحالت خيراته إلى شرورٍ كثيرة يُمكن أن تربو على الحصر، فما الغمز، واللَّمز، والهَمز، والغيبة، والنميمة، والفتنة، والقذف، والقول بغير عِلْم، والشتم، والقدح، والسُّبَاب، والكذب، واللَّعن إلا جزء من سيِّئاته، حتى أُلِّفَت في سيئاته المؤلفات، ووُضعِت في بيان أضرارها المُصنَّفات[1]، وهي سيِّئات يَصِحُّ أن تقعَ من المؤمنين أو من الكافرين على السواء.

أمَّا سيِّئات اللسان التي جاءت في المواضع القرآنية مقترنةً بمفردتِهِ فجاءت أربع مرات جميعها في حقِّ الكافرين، سواءً أكانوا من أهل الكتاب خصوصًا اليهود في موضعيه من سورتي «آل عمران» و«النساء»، أو مع المُعَوِّقين من المنافقين والذين في قلوبهم مرض في موضع سورة «الأحزاب»، وأخرى مع كفار مكَّة والكفار عمومًا في موضع سورة «الممتحنة».

أمَّا مجيئها مع أهل الكتاب من الذين هادوا أو الذين قالوا: إنهم نصارى، فجاءت معهم مُضَمَّنَةً في سياق الحِقد على الموحِّدين المُصدِّقين بالنبيِّ محمد ﷺ بعد مبعثِهِ، فَبَعد فَشَلِهم في جميع محاولاتهم السابقة في النَّيل من الدعوة المحمَّدية وأتباعها من إضلال المؤمنين، والكفر بآيات الله، وإلباس

(١) انظر مثلاً: آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني (ص٦٢- ٦٩).

الحقِّ بالباطل، والإغراء بالإيمان بجزء من النَّهار دون سائره[1]، لم يجدوا بُدًّا من محاولة القَدح في آيات القرآن أو محاولة تغييرها وتحريفها وآلتُهم في ذلك اللِّسان، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٧٨]. وهذا أيضًا سرٌّ من أسرار البراعة القرآنية في التعبير؛ إذ إنَّه لا يستطيع أن يُغَيِّرَ الكلام عن حدِّه جارحةٌ غير اللسان، فاتَّخذوه وسيلةً لِلَّيِّ عاطفين أعناقَ الكلام عن حدِّ الاستقامة إلى العِوج؛ تلبيسًا وتدليسًا على العوام ليَظنوه من القرآن[2]، دلَّ على جهل بعض أولئك العوامِّ تأكيد الخبر الإنكاري بأعلى درجات التأكيد بإنَّ واللام المزحلقة في اسمها المؤخَّر إضافة إلى تكرار بعض الألفاظ، وربَّما استعملوا ألسنتهم في تشويه دَلالة بعض الآيات الخاصَّة بنُبُوَّة سيدنا محمَّد بإلقاء الشبهات والشكوك حولها[3].

وفي آية النِّساء جاء التَّعبير عن اللَّيِّ ذاته بذِكْر لونٍ من ألوانه المقيتة التي كان يستعملها أهل الكتاب في تحريفهم الحاقد ومحاولة تشويههم الوَاهِم للكتاب العزيز، وهو إزالتُهم لبعض ألفاظهِ، وإمالتها عن معانيها الأصلية؛ كألفاظ: راعِنا واسمع غير مُسمع، في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

(١) انظر: الآيات (٦٩-٧٧) من سورة آل عمران.

(٢) انظر: تفسير السمعاني (١/ ٣٣٥)، وتفسير القشيري، (١/ ٢٥٣).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، (٨/ ٢٦٩)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٤٦٠).

فمَـردُّ التَّحريف راجعٌ إلى قولـه: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ لأنه يحتمل معنى الدُّعـاء علـى النَّبيِّ بالصَّمم على معنى: لا سـمعتَ، وإلـى قوله: ﴿رَٰعِنَا﴾؛ لأنهـا من الأضداد؛ فكانـوا يقصدون وصفَـهَ ﷺ بالرُّعونة والطَّيـش مُظهِرين خلافَ ذلك من المراعاة، وهذا هو عين إزالة الكلام وإمالتِهِ عن موضع معناه مـن الحقِّ إلى ما في قلوبهم من الباطل، «فكانـت اليهودُ إذا خاطبت النبيَّ بغير مسـمعٍ، أرادت في الباطـن الدُّعـاء علَيـه، وأرادت ظاهرًا أنها تريـد تعظيمه... وكذلـك راعِنـا كانـوا يريدون منه في نفوسـهم معنـى الرُّعونـة، ويُظْهِرون منه معنى المراعاة، فهذا معنى لَيِّ اللسـان»[1]، ثمَّ إنَّه تعالى حَسَم مُحاولةَ التشويه أو التحريـف تلـك بالنَّهي الصَّارم عـن قول تلك الألفـاظ الحمَّالة للوجوه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤] فلا ينطِقُ بها أحدٌ بعد ذلك إلَّا مَن كان معلومَ النِّفاق. وإنما وَجـب التَّنبيه على هذه الألفاظ بالنَّصِّ عليهـا صراحةً في القرآن العزيز؛ لأنَّ ظاهرها ألفاظ لسـانٍ عاديَّة لا قَدْح فيهـا أو تجريح، وكذلك لم يريدوا بها الإيهام بأنَّها من الكتاب كما في موضع «آل عمران» السـابق، وهذا كلُّه حتى لا يُخْدع بها أحدُ العوامِّ أو أحدٌ من غيرهم.

كمـا جاءَ اللسـانُ في إطار تجلية الحِقْد الدَّفيـن في غِمار الحرب الكفريَّة على المسلمين؛ ليكون أحد معاوِلها في محاولة هدم صرْحِ المؤمنين والتفتيت في أعضادهم، فهم العدوُّ الذي يحشـد جميع ما استطاع إليه من أسباب السوء في حـرب الموحِّديـن حال ظفرهـم وتمكُّنِهم منهـم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، يقف على رأس تلك الأسباب ألسنة السوء، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]. فإذا كان بسـط اليد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٦٢).

بالسوء يشمل القتال والجراح وسائر الأذى المادي؛ فإنَّ أذى اللِّسان أعظم خطرًا وأدومُ أثرًا من السبِّ والشتم والقدح والعيب[1]؛ لشخوص المؤمنين وشخص النَّبي الأكرم؛ فتجري بتلك الشَّتائم الركبان، وتُذكرُ كلَّما ذُكِرَ صراع الفريقين؛ فلا يَلتامُ بعدها ما جرحَ اللسانُ.

وأمَّا الموضع الأخير لموضع معنى السوء الذي جاء اللسان في القرآن الكريم للتعبير عنه، فقد كان في منظومة التَّعبير عن أخطر فئة على المجتمع المسلم، وهي فئة المنافقين عند قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

فقد جاء بمفردة اللسان إثر التعبير عن بُخلِ أولئك المنافقين على المؤمنين يوم الخندق بالحفر فيه، أو بالقتال معهم، أو بالإنفاق على المحتاجين من الفقراء والمساكين منهم، أو بحيازة الغنائم وحدهم[2]، ثمَّ يختار النَّظم الكريم مفردة فريدةً للتَّعبير عن الإيلام الرهيب والأذى العظيم مفردة «السّلق» التي لم تَرِدْ في النَّظم القرآني غير هذه المرَّة، يختارها للتعبير عن طعن المنافقين على المؤمنين بلسانٍ من حديدٍ وهو أذيَّتهم بأشدِّ الكلام الجارح وبالمبالغة في العيب والخصومة[3]، بعد انتهاء أعتى أزمة كانوا يواجِهُونها من دوران أعينهم في كلِّ جهة كالذي يُغشى عليه من الموت حيارى فرقًا من فجأة الموت وخوفًا من سهامِه وقتَ اشتعال الحرب.

(١) انظر: تفسير المراغي (٢٨/ ٦٣).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤/ ١٥٣-١٥٤).
(٣) انظر: خواطر حول القرآن، الشعراوي (١٩/ ١١٩٧٥).

كما أنَّ لهذه المفردة معاني حسِّيَّة ماديَّة ذكرها بعض أصحاب المعاجم تُظهِرُ مزيدًا من بلاغة استعمال هذه المفردة للسان في هذا الموضع -موضع وصفِ إيلام المنافقين وإيذائهم للمؤمنين- ومن تلك المعاني نزع الجلد «وسلَقهُ بالسَّوطِ وملَقَهُ، أي: نزع جلَدَه»[1]، وعلى هذا المعنى يُمكن أن يُخَرَّجَ معنى الآية على الاستعارة المكنيَّة اللَّطيفة بتشبيه اللِّسان بالسَّوْط الذي ينزع شيئًا عن أصلِه بجامع ما يترتَّب عليهما من شديد الإيجاع وبالغ الإيذاء، وقد حذف المشبه به وأبقى على صفة من صفاته وهي نزع الجِلْد على سبيل الاستعارة المكنية الحسِّيَّة التي تُجَسِّم الأمور المعنويَّة وتُحِيلُها ماديَّة ملموسة أو مشاهدةً؛ ليزيد من قوَّة معناها المُراد؛ فما راءٍ كَمَن سمِعَا. وبمزيدٍ من التدبُّر في هذا المعنى الماديِّ لهذه المفردة يتبيَّن الإعجاز القرآن المبين؛ لأنَّ هذا المعنى الحسِّيَّ للسَّلق الذي يُلحِق ذلك الأذى المادي الرَّهيب من نزع الجلد بطريق الاستعارة يكون فقط إذا شُبِّهَ اللِّسان بالسَّوط، فكيف لو شُبِّهَ هذا اللسان بسوط مصنوع من حديد؟! إنَّ أثره سيكون أبلغ وأثره أعمق وإيلامه سيكون بالطَّبع أشدَّ، فلربَّما نزع اللحم مع الجلد أيضًا، فانظر كيف انتظمت هذه المفردة في هذه الاستعارة البليغة مع تلك الصِّفة بالحديد في بديع من النَّظم تتفجَّر منه المعاني الراقيات، والحِكَم البالغات.

وهنا أيضًا تتجلَّى فريدةٌ من فرائد بلاغة التَّعبير القرآني المتمثِّل في تضافر الإمكانات التعبيريَّة وحشدها في نقل المعنى تامًّا بالغًا، فَشُحُّ المنافقين يُحيط بالمؤمنين من جوانبهم كافَّة، من قَبْل سلْقِ اللسان ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، ومن بعده ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾، ثمَّ يأتي غمزهم وتطاولهم بشتى ألوان العيب والتأنيب بلفظ

(١) القاموس المحيط، (١/ ٨٩٤)، ولسان العرب، (١٠/ ١٦٠). ومن تلك المعاني المادية الغليُ بالنار، وسَلْقُ الأديم دَهْنُهُ، وأسلق الرجل إذا ابيضَّ ظهرُ بعيرِه.

«السَّلْقِ» حتى لكأن المتلقِّي يشعر بشدَّة الإنهاك الذي اعترى المؤمنين إثر أذيَّة المنافقين اللِّسانية لَمَّا كان السَّلق يُضعِفُ المسلوق ويُنْهِكُهُ إلى حدٍّ بعيدٍ، ثمَّ يأتي بعد ذلك الجديد في معنى السَّلق هذا وهو أداة السَّلق والغمز والإضعاف، وهي أقوى آلة في هذا المضمار وهو لسان حديديٌّ صليتٌ لا يَكلُّ من التَّعييب، ولا يَمَلُّ من القدحِ والتَّأنيب، ولا يَنِي طالبًا المزيد من الغنائم التي لا حقَّ له فيها؛ ليُكْمِلَ اللسان بذلك المعنى الفريد الذي وُظِّفت مفردة «السَّلق» من أجل التعبير عنه. وفي هذا أيضًا حِكمة بالغةٌ لقومٍ يتفكَّرون في بلاغة التَّعبير المُعْجِز.

وأمَّا الشُّحُّ فهو البُخل بما في المقدور عليه من النَّصر أو الإعانة عن الغير دون النفس، وهو أبلغ في المنع من البخل[1]، وربما كانت المناسبة بين وصف أولئك المنافقين بالأشحَّة على الخير وبين وصفهم البليغ بالسَّلق ترجع إلى سرِّ تعدية فعل الشُّحِّ هذا بـ «على» دون الباء؛ لما في تعديتِهِ بـ «على» من معنى الاعتداء على الشخص الممنوع بذلك الشُّحِّ[2]. فيكون أولئك المنافقين قد اعتدَوا على المؤمنين بمنعهم من النَّصر والعون على عدوِّهم المداهم لبلدهِم عند الحاجة إليه، منعًا مستعليًا على حيازة سائر المالِ دون أن يكون للمؤمنين أدنى نصيب منه[3]، وهذا يأتي في سياق أسباب الإيذاء الكثيرة التي جمعتها زمرةُ الذين مردوا على النِّفاق في حرب المؤمنين.

.....

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٤٩٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢١/ ٢٩٦).

(٣) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (١٥/ ٣١٥).

مجلة تدبر

الخاتمة

وهكذا يرسو هذا البحث إلى مَرْفأ نتائجه مسجِّلًا أبرزَ ما توصَّل إليه من نتائجَ ودَلالات عميقة للتَّعبير بألفاظ اللسان في آيات سور القرآن الكريم، ومن أهمها:

- وردت مفردة اللسان في القرآن الكريم خمسًا وعشرين مرةً في ثمانيَ عشرة سورة منه، عشر مرات مفردة من غير إضافة «لسان»، وثلاث مرات مضافة لضمير الخِطاب «لسانَكَ»، ومضافة إلى ياء المتكلم «لساني» مرتين فقط، بينما وردت مجموعةً عشر مراتٍ أُخَرَ، مرةً دون إضافة «ألسنة»، وثلاثًا أُضيف إلى المخاطب «ألسنتكم»، وستًّا أضيفت فيها لضمير الغيبة «ألسنتهم».
- جاءت ألفاظ اللسان هذه ضمن أساليب بلاغيَّة أغلبها الإنشاء الطَّلبي بنوعيه الأمر والنهي، والخبر بأنواعه، كما ورد في أساليب القصر بـ«إنما»، والشرط، والمجاز المرسل ذي العلاقة الآلية.
- كما جاءت هذه المفردة للتعبير عن ستَّة سياقات معنويَّة عامَّة، وهي: العُقدة والانطلاق، والصِّدق، والكَذب، واللُّغة، والشَّهادة، والسوء عمومًا، وكان لكلِّ سياق منها مقامٌ معنويٌّ خاصٌّ بكلِّ موضع على حِدَة.
- وردت مفردة اللسان في سياق الانعقاد والانطلاق ثلاث مرات بصيغة الإفراد، واحدة باللفظ الصَّريح، واثنتين بالكناية، وثلاثتها للتَّعبير عن موقف الهَيبة والرَّهَبِ العظيم الذي دخل قلب سيدنا موسى قبل ملابسات إرساله إلى أعتى ملوك الفراعنة، وأكثرهم تسلُّطًا وبغيًا وجبروتًا في حينه.

◆ جاء اللسان ثلاث مرات أيضًا في سياق الشهادة للتَّعبير عن الشهادة القويَّة، والحجَّة الدامغة التي لا سبيل لإنكارها على الخائضين في عِرض أمِّ المؤمنين عائشة يوم العرض الأكبر، وعلى المذنبين بشكل عامٍّ في موضعين، بينما جاء للتَّعبير عن الشَّهادة للنَّبيِّ محمد ﷺ لا عليه في شدَّة حِرْصه في تلقِّي القرآن والعجلة فيه؛ خوفًا عليه.

◆ كما ورد اللسان موصوفًا بالصِّدق ثلاث مرات أيضًا بصيغة الإفراد كلها في حقِّ الأنبياء الكِرام؛ اثنتين مع سدينا إبراهيم عليه السلام؛ تخليدًا لذكره وبيانًا لفريد فضله وتَقَدُّمِه، ومرةً واحدةً وصفًا للنَّبيِّ محمد ﷺ، أو للقرآن المُنَزَّل عليه على الوجه الآخر لقراءة ذلك الموضع.

◆ وورد موصوفًا بالكذب أربع مرات، لكنها كانت جميعًا بصيغة الجمع، في سياقِ التَّعبير عما تفوَّهَ به الضَّالُّون والكافرون وبعض أهل الكتاب من الافتراء عليه سبحانه فيما شرَّع بتحليل حرامه وتحريم حلاله، أو افترائهم بنِسبة البنات إليه سبحانه، أو للتعبير عن افتراء المفترين في حديث الإفك، وأخيرة للتَّعبير عن الاعتذار الكاذب للمخلَّفين من المنافقين عن رسول الله.

◆ كان النَّصيب الأوفى للسان في القرآن الكريم مُرادًا به اللُّغة على اختلافها ثمانِيَ مرات، أربعًا منها أريد به اللُّغة العربية صراحةً، ومرة واحدة أريد بها اللسان العربي ضمنًا مع غيره من اللُّغات، والسادسة أُريد بها اللُّغة العبرية وهي لسان بني إسرائيل، والسَّابعة بمعنى اللُّغة الأعجمية وأريدَ بها «الرومية» في مقام المفارقة بينها وبين العربية، أمَّا الثامنة فكان المُراد بها لغات البشر عامَّة دون تعيين.

- أخيرًا ورد اللسانُ أربع مرات للتَّعبير عن السوء عمومًا جميعها في حقِّ الكافرين سواءً اليهود في موضعين للتَّعبير عن حِقْدهم على المؤمنين ومحاولة تحريف قرآنهم، أو مع المنافقين في موضع واحد في سياق التَّعبير عن شدَّة إيلامهم للمؤمنين والاجتهاد في إضعافهم، أو مع الكفَّار عمومًا في الموضع الأخير للتَّعبير عن انتظارهم فرصةَ الظَّفَر على المؤمنين فيستأصلوهم.
- أُوصي الباحثين بمحاولة إكمال دراسة بعض المفردات القرآنية التي لم تُطرق بعدُ بأمثال هذه الدِّراسة البلاغيَّة الأسلوبية، مع تتبعها في جميع مواضعها من النَّظم القرآني محاولين تبيان شيءٍ من أسرار إعجاز تراكيبها.

مجلة تدبر

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- **أولًا: المصادر:**

١. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. العمادي، أبو السعود محمد بن محمد. د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٢. **أسباب النزول**. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. تحقيق: عصام الحميدان. ط٢، الدمام: دار الإصلاح، ١٩٩٢م.

٣. **أسرار التكرار في القرآن**. الكرماني، محمود بن حمزة. تحقيق: عبد القادر عطا. د.ط، د.م: دار الفضيلة، د.ت.

٤. **إعراب القرآن**. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل. تعليق: عبد المنعم إبراهيم. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ.

٥. **الإمتاع والمؤانسة**. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس. ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.

٦. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ.

٧. **البحر المحيط في التفسير**. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي. تحقيق: جميل صدقي. د.ط، بيروت: دار صادر، ١٤٢٠هـ.

٨. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. الفيروز آبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب. تحقيق: محمد علي النجار. د.ط، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٦م.

٩. **البصائر والذخائر**. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس. تحقيق: وداد القاضي. ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٨٨م.

١٠. **التبيان في إعراب القرآن**. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي. د.ط، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

١١. **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. تحقيق: محمد شمس الدين. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.

١٢. **تفسير القرآن**. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد. تحقيق: ياسر إبراهيم وعباس غنيم. ط١، الرياض: دار الوطن، ١٩٩٧م.

١٣. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**. الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن. ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

١٤. **تفسير لطائف الإشارات**. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك. تحقيق: إبراهيم البسيوني. ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

١٥. **تفسير مجاهد**. مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي. تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل. ط١، القاهرة: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ١٩٨٩م.

١٦. **جامع البيان في تأويل القرآن**. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط١، د.م: موسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

١٧. **الجامع لأحكام القرآن**. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م.

١٨. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. تحقيق: محمد معوض وعادل عبد الموجود. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

١٩. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

٢٠. **زاد المسير في علم التفسير**. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٢١. **سنن الترمذي**. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد شاكر وآخرون. ط٢، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥م.

٢٢. **شرح ديوان الحماسة**. الأصفهاني، أبو علي أحمد بن محمد. تحقيق: غريد الشيخ. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٢٣. **شرح ديوان المتنبي**. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد. د.ط، د.م: د.ن، د.ت.

٢٤. **الصحاح تاج اللغة وسر العربية**. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٢٥. **العقد الفريد**. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمود الأندلسي. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ.

٢٦. **فتح القدير**. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. ط١، دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٤هـ.

٢٧. **فقه اللغة وسر العربية**. الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط١، د.م: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م.

٢٨. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو. ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٢٩. **اللباب في علوم الكتاب**. الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي بن عادل. تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٣٠. **لسان العرب**. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

٣١. **مجمع الأمثال**. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٣٢. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. ط١، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤٢٠هـ.

٣٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،١٤٢٢هـ.

٣٤. **مسند أبي يعلى**. الموصلي، أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد. ط١، دمشق: دار المأمون، ١٩٨٢م.

٣٥. **معالم التنزيل في تفسير القرآن**. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٣٦. **معجم مقاييس اللغة**. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء. تحقيق: عبد السلام هارون. د.ط. د.م: دار الفكر،١٩٧٩م.

٣٧. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن. د.ط، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت.

ثانيًا: المراجع:

١. **إعراب القرآن وبيانه**. الدرويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى. ط٤، دمشق: دار اليمامة، د.ت.

٢. **آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة**. القحطاني، سعيد. ط٩، الرياض: مطبعة سفير، ١٤٣١هـ.

٣. **التحرير والتنوير**. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد. دط، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٤. **تفسير المراغي**. المُراغي، أحمد مصطفى. ط١، القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٦م.

٥. **خواطر حول القرآن الكريم**. الشعراوي، محمد متولي. د.ط، القاهرة: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

٦. **ديوان زهير**. ابن أبي سُلمى، زهير. اعتناء وشرح: حمدو طمَّاس. ط٥، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م.

٧. **ديوان طرفة بن العبد**. طرفة ابن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين. ط٣، د.م: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

٨. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. عبد الباقي، محمد فؤاد. ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات

مستخلص البحث ١٣٩

خطة البحث..... ١٤٠

التمهيد..... ١٤٣

المبحث الأول: عقدة اللسان وانطلاقه ١٤٨

المبحث الثاني: اللسان والشهادة ١٥٤

المبحث الثالث: اللسان ووصفه بالصدق ١٥٨

المبحث الرابع: اللسان ووصفه بالكذب ١٦٤

المبحث الخامس: اللسان لغة للقوم ١٧١

المبحث السادس: اللسان مع السوء عموما ١٧٨

الخاتمة ١٨٥

المصادر والمراجع ١٨٩

فهرس الموضوعات ١٩٥

TADABBUR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

Number7; Muharram 1441 AH, corresponding to September 2019

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **Legislative Guidance on Foods Provisions: An Explanatory and Objective Study**
  Dr. Bey Zekkoub Abdelali
- **The guidance derived from the verse: (Fa bimā rahmatim minallāhi linta lahum...) [Al Imran: 159]**
  Mr. Mohammed bin Ali bin Jamil Al-Matari
- **The Eloquence of the Expression of "Tongue" in the Verses of the Holy Qur'an**
  Dr. Mohamed Hatem Abu Semaan.
- **The prophets' (peace be upon them) praise to their Lord in the Holy Quran Objective study**
  Mr. Hamza Abdullah Saadi Shawahneh
- **Report on a scientific thesis entitled:" The words of (la ilaha illa Allah) in the Holy Quran "Objective study**
  Dr. Musa bin Salem al-Maliki.
- **A report on "Yatadarasunaho" Program**
- **Report on the Sixth International Conference of Quranic Studies and the contemplation of the Holy Quran in Europe "The Qur'anic methodology in Building the Human».**

1658-7642